

الديانة الدارونية

هارون يحيى

ترجمة وتهذيب واختصار

مبارك عامر بقنه

	الفهرس
	المقدمة
	الداروينية: دين الخرافة
	التطوريون المعاصرون أكثر تشدداً من داروين
	الاستبداد الفكري
	أصول دين الداروينية
	لا يوجد فرق بين الداروينية والأديان الأخرى المبتدعة
	استمرار نفس الفهم الوثني
	عبادة الشمس
	انحراف كل الأديان الباطلة: بإنكار الله
	مفكري الوثنية اليونانية أول من بذر بذور الداروينية
	اعتقاد آخر من الثقافات الوثنية القديمة:
	السلسلة الكبرى للوجود
	نظرة ثاقبة على دين الداروينية
	تشارلز داروين: مؤسس «الدين»
	معبد الطبيعة» ايراسموس داروين
	جاء الدين المظلم إلى الحياة في جزر غالاباغوس
	أصل الأنواع: الكتاب الباطل للدين الباطل
	دين الداروينية دين وثني
	تأثير الدين بسبب الأنشطة التبشيرية
	الانحراف الدارويني في الشعور الأخلاق
	محرمات الدين الدارويني التي لا يشكك فيها
	التطويرون وجواز التزوير
	الخلاصة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الترجمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله

من الأسئلة الوجودية الكبرى التي ترد على الذهن: ما الإنسان؟ من أين أتى؟ ما علاقة الإنسان بالكون؟ ما غاية وجوده؟ ما مصيره؟ هذه الأسئلة اشغلت الفكر الإنسان قديماً ولا زال منشغلاً بها كثير من الناس. ولقد تناول القرآن الكريم قضية الوجود الإنساني بكل وضوح، فبين الله تعالى في عدة آيات أن الله عز وجل خلق الإنسان من تراب، ذكر هذا الشأن بشكل واضح كي لا يلتبس الأمر على الناس قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِنَبْلُوَكُمْ أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدةً فَإِذَا أُنزِلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعْمِرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١].

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِنَبْلُوَكُمْ أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلٍ وَلِنَبْلُوَكُمْ أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧].

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

قال تعالى: ﴿إِن مِّثْلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا﴾

[الكهف: ٣٧]

فهذا الأمر لا اشكال فيه عند المسلمين؛ بل عند أهل الديانات السماوية، والفطرة السليمة تشهد على هذا وتقره ولكن من فسدت فطرته ولم يهتد بشرع الله تعالى فإن الأمر يلتبس عليه ويكون في حيرة من أمره.

فقد ذكر لنا التاريخ كيف ضل الفلاسفة في هذا الأمر، فنرى طاليس (٥٦٠-٥٤٨ ق.م)، والذي يُصِف بأنه أول الفلاسفة وأنه مؤسس الفلسفة الطبيعية، قال أن الجوهر الأساسي الذي تنبثق منه الأشياء هو الماء، فجعل الماء هو القوة التي أحدثت هذا النظام الكوني بما فيه الإنسان، وقد أسس هذه الرؤية بناء على الملاحظة، فالماء يمر بحالات المادة الثلاث: الصلابة، والسيولة، والغازية. والمواد لا تخرج عن هذه الثلاث حالات كما اعتقد طاليس، فكان الماء عنده هو المادة الأساسية التي تكون منها الكون. فالإله عند طاليس هو الخالد، والماء فيه صفة الخلود، فالماء ليس له بداية

ولا نهاية، حتى حركة الأشياء عللها طاليس أنها ناتجة بسبب الماء؛ إذ أن كل حركة يسبقها حركة حتى تعود الحركة إلى شيء يتحرك تلقاء ذاته وذلك الماء فإنه يتحرك دون محرك له. ويرى طاليس أنه لا فرق بين الموجودات، فالاختلاف بين الإنسان والحجر والشجر وغيرها هو بسبب الاختلاف في نسبة الماء فقط.

ثم جاء «انكسيماندر» (545-610) (Anaximander ق.م)، وهو تلميذ طاليس وأستاذ المدرسة المالطية، حيث يرى أن أصل العالم مادي يكمن في اللامحدود أو اللامتناهي، فالأصل الأول للموجودات هو اللامحدود، الذي لا يمكن أن يكون عنصراً طبيعياً بعينه، مثل الماء أو الهواء، وهو غير قابل للفناء. لقد تصور أن اللامحدود متحرك، خرجت منه كرة من اللهب، ثم انفجرت إلى أجزاء كثيرة، وأصبح كل جزء منها في صورة دائرة بواسطة الحركة.

ثم جاء «أنكسيمانس» (535 ق.م) (Anaximenes): تلميذ انكسيماندر، وقد خالف طاليس في جوهر الأشياء وقال إن الهواء هو أصل الوجود. فلهواء لا يستغنى عنه أحد، فكل الكائنات الحية تحتاج الهواء، والهواء هو الذي يحرك الماء، وله درجات مختلفة من الكثافة، فهو يتمدد بالحرارة وينكمش بالبرودة، فهو يخضع بما يعرف بالتخلخل أو التكاثف. والهواء موجود في كل مكان، فهو أذن جوهر الوجود.

ثم جاء «هيراقليطس» (535-475 ق.م) (Heraclitus)، ليقول أن «النار جوهر الوجود»، فالنار هي المادة الأولى في الطبيعة؛ لأنها الأقدر على التغير والحركة، فيرى أن أصل العالم هو النار، « وكل الأشياء تتحول إلى نار، والنار تتحول إلى كل الأشياء، ويتم هذا عن طريق الجدل الهابط والصاعد، فالنار الأولية عندما تصيبها الرطوبة تتحول إلى ماء، والماء إلى تراب، وبالمقابل يتحول التراب إلى ماء والماء إلى النار، فالعالم لم يصنعه أحد من الآلهة أو البشر، ولكنه كان دائماً ويكون وسيكون ناراً حية أبدية تستعر بمقدار وتنطفئ بمقدار^(١)»، فالنار الشيء الوحيد الثابت في هذا العالم الدائم الجريان، وهي المبدأ الكامن وراء التغير الدائم للظواهر، وهي المقياس والغاية لجميع الموجودات. ولهيراقليطس عبارة شهيرة «أعتقد، أن كل شيء في سيلان دائم... فلا يمكن أن تدخل في نفس النهر مرتين»^(٢).

ثم جاء «انكساجوراس» (Anaxagoras) (سنة 428 ق.م) وعنده أصل الكائنات الحية من التراب بفعل الحرارة، وتكاثرت في الرطوبة وتوالدت الأنواع بعضها عن بعض، فالتراب قد يصير نباتاً أو حيواناً أو إنساناً؟ والكائنات ستعود إلى صورة التراب مرة أخرى، بالتالي يمكننا اعتبارها صوراً للتراب وليست جوهرًا بذاتها، بينما التراب هو الذي يمكن أن نطلق عليه مادة الكون وجوهره.

(١) الموسوعة العربية.

(٢) انظر <http://plato.stanford.edu/entries/heraclitus/>

وهؤلاء كلهم أحاديون أذ يرجعون الحقيقة إلى كائن واحد، فالحقيقة في نهاية المطاف هي واحدة، ثم جاء «أمبيدوكليس» (430) ((Empedocles – ٤٥٥ ق.م) وقال بالتعددية فقال أن الكون أصله من العناصر الأربعة: النار والهواء والماء والتراب. ويرى أن اختلاف ظهور هذه المادة وشكلها يعود لاختلاف تمازج هذه العناصر الأربعة بعضها ببعض. وذهب بعض الفلاسفة أن العالم مكون من تشكيلة غير محددة من البذور، وقال «ديموقريطس» (460) (Democritus – ٣٧٠ ق.م) بأن الحقيقة مكونة من عدد غير متناهي من الذرات، وبتحاد هذه الذرات ينشأ الكون، وتنشأ في الوجود مواد ومركبات جديدة.

وهكذا نجد الاختلاف الكبير في معرفة أصل الحياة ومنشأ الإنسان، فكل يقول برأيه، فيظن ظناً وييني عليه حكماً، والظنون والأوهام لا حد لها، حتى أن بعضهم ذهب إلى إلغاء الوجود، فقالوا: إن كل ما هو موجود، يتغير. وكل ما يخضع للتغيير فهو مجرد وهم، ولا يمكن أن يكون موجوداً فعلاً. فعندهم كل ما نراه من شجر وحجر وماء وتراب وإنسان كلها وهم. وهذا أمر لا يكاد يتصور أن يشك الإنسان في المحسوسات التي يراها بعينه ويمسكها بيده. ومنهم من قال أنه ليس في الوجود إلا ما نراه، قال بروتاجوراس: «طالما أن الآلهة غير ملموسة مادياً؛ فهي إذن غير موجودة».

ظل العقل يبني أفكاره نحو الوجود على الظن والخيال والأوهام، وهو حتماً لن يصل لنتيجة صحيحة طالما هو يزيح الله عز وجل عن فكره، فلا يمكن لأي نظرية أو فرضية أن تصل لحقيقة الوجود وهي تجسد وجود الله تعالى، وتنكر قدرته على الخلق والإيجاد، وتنسب ذلك إلى الطبيعة أو بعض مكوناتها.

وكما كانت هذه القضية مقلقة قديماً فهي لا زالت إلى هذا اليوم مقلقة لدى فئام من الناس، ففي عصرنا قرأنا من يقول:

جئت، لا أعلم من أين، ولكنني أتيت
ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت
وسأبقى ماشياً إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟
لست أدري!

فهذه حيرة يعيشها الشاعر لأنه أراد أن يعرف بعقله كيف جاء، وما علة مجيئه، دون أن ينسب سبب الإيجاد إلى الله عز وجل فسقط في الحيرة والقلق. والعقل يدرك أن الله خالقه، ولكن الاشكال في تجاهل هذا الخالق عز وجل، وسلب خاصية الخلق من الله تعالى، وإرجاع ذلك إلى الطبيعة أو مخلوق آخر دون الله تعالى، وهنا يأتي القلق الذي عاشه الشاعر لأنه رأى أن الوجود عبث لا غاية له.

وقبل الشاعر كان أيضاً تشارلز داروين صاحب نظرية التطور يعيش في حيرة واضطراب، وهذا أمر طبيعي؛ لأنه انتزع صفة الخلق التي هي من خصائص الله تعالى ونسبها إلى غيره، وصفة الخلق هي من خصوصيات الله تعالى قال تعالى ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣].

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَتَتَّخِذُونَ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسُهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦]

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَنَىٰ تُؤَفَّكَوتَ﴾ [غافر: ٦٢].

يقول داروين واصفاً حيرته: «في تدبذباتي الكبرى، لم أصل أبداً إلى الإلحاد بالمعنى الصحيح لهذا اللفظ، أي أنكار وجود الله. لكنني اعتقد على وجه العموم (وكلما امتد بي العمر) أن الوصف الأدق لحالتي العقلية هو: اللاأدرية agnosticism^(١)». فهذا كان حاله أنه لا يدري، ويقول أيضاً: «لا يمكن بأي حال أن اقتنع بهذه الرؤية أن هذا الكون المذهل، وخاصة فيما يتعلق بالطبيعة البشرية ... وأنا ميال للنظر في كل شيء كنتيجة عن قوانين موضوعة ... وكل هذه القوانين تم تصميمها بشكل صريح من قبل خالق كلي العلم، الذي (تنبأ) عن كل حدث في المستقبل، ولكن أكثر من هذا إذ أعتقد أنني أصبحت أكثر حيرة».

فمن زعم هناك شريكاً لله تعالى في الخلق والرزق والإحياء والإماتة والتدبير أو التصرف من دون الله تعالى فهو حتماً سيعيش في حيرة واضطراب. ولا يمكن أن يجد برهاناً يؤيد قوله ورأيه، وسيتجه للكذب والافتراء والتزوير والمجادلة بالباطل قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ ثَانِي عَشْرَةَ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابُ الْحَرِيقِ [الحج: ٨ - ٩].

فمن أصعب القضايا التي تناولتها البشرية هي قضية الوجود الإنساني، والصعوبة تكمن في تجاهلها الوحي وتعاملها مع الإنسان كالموجودات الظاهرة، والإنسان خلاف ذلك، فهو أسمى من هذه الموجودات، ولا يمكن فهم الطبيعة الإنسانية من الخارج فحسب، فهو ليس كتلة صماء؛ بل لا بد من معرفة الإنسان من الداخل، فلا يكتفي التعامل مع الإنسان على أنه مادة مجردة لا روح له، فطبيعة الإنسان أعمق مما في الظاهر، ومن تعامل مع الإنسان على أنه مادة نشأ في الكون كبقية المواد الأخرى فإنه حتماً سيسقط القيم الإنسانية الكبرى كحاجة الإنسان للتعبد، ويلغي القيم الأخلاقية التي هي من الخصائص الإنسانية، ويتجاهل مشاعر الإنسان وأحاسيسه وعوالمه الداخلية ويتعامل مع كل هذه الخصائص على أنها نتيجة الأثر المادي فيه، وأنها جزء من الطبيعة المادية تخضع لقوانين المادة كما تخضع الحجر والشجر، وبما أن وجود الإنسان كوجود المواد الأخرى فإن مصيره

(١) الموسوعة الفلسفة لعبد الرحمن بدوي (١/ ٤٧٥)

كمصيرها، هو الفناء والعدم. وهذا أكبر مأزق تعيشه الحضارة الغربية في نظرتها للإنسان باعتباره مادة كبقية المواد.

هذا الكتاب يكشف تزوير الدارونية، ويبين تدليسها وكذبها على الناس، وأن الدارونية دين يراد به صرف الناس عن ربهم وجعلهم يعيشون في الحياة دون غاية أو هدف، مثلهم مثل الدواب، والكتاب أصله لهارون يحيى بعنوان «دين الدارونية» (THE RELIGION OF DARWINISM) وقد قمت بترجمته، وتهذيبه، وحذف المكرر، والتعليق على بعض المواطن، وأشكر كثيراً مركز الفكر المعاصر على اقتراحاتهم الجوهرية التي قدموها لي، والتي ساهمت في إخراج الكتاب بهذه الصورة النهائية. وقد حاولت أن تكون التعليقات قليلة وقصيرة كي لا يزداد حجم الكتاب، فيخرج عما أردت.

وإن كان هناك فضل لأحد بعد الله تعالى في إخراج هذا الكتاب، فهو لهارون يحيى صاحب الكتاب الأصلي، ولمركز الفكر المعاصر الذين لم ييخلوا علي بشيء من جهدهم وفكرهم، فلهم كل الشكر والتقدير، والله أسأل أن ينفع بهذا الكتاب كل من ساهم فيه وكل من قرأه، وصلى الله على نبينا محمد.

مبارك عامر بقنه

الداروينية: دين الخرافة

«لقد تم تحويل نظرية التطور، مع إن خصائص النظرية الداروينية لا تزال هي نفسها، إلا إنها أصبحت عقيدة يبشر بها أتباعها بتوقد وحماس ديني».

(مقابلة مع مارجوري جرين، نوفمبر ١٩٥٩، ص ٤٨).

فقدت نظرية التطور مصداقيتها في الأوساط العلمية منذ أن ظهرت للمرة الأولى، فأعداد كبيرة من الاكتشافات العلمية تترا واحدة تلو الآخر لتبطل ادعاءات النظرية. فتطور المجهر الالكتروني، والمعرفة الجديدة لقوانين الوراثة، واكتشاف بنية الحمض النووي، والكشف عن مدى تعقيد كل كائن حي، والتطورات الحديثة الأخرى مستمرة في دحض الداروينية.

ومع أن العلم يتطور بسرعة ويضيف في حياتنا أشياء جديدة بشكل مستمر، إلا إنه لا يزال العلماء غير التنورين، والمتعصبون، مستمرون في دفاعهم عن النظريات التي جرت في القرن التاسع عشر، نظريات تم دراستها ضمن الفهم العلمي البدائي التي بسذاجتها وسطحياتها تضحك الأطفال.

لذلك ما تفسير حقيقة أن الداروينية لا تزال لها شعبية حتى في بعض الأوساط العلمية؟ مع إنه لا يوجد هناك دليل علمي واحد ملموس تستند عليه؛ بل من الواضح بجلاء أن كل شيء حي نشأ وتكون وفق تصميم دقيق لا يلحقه خلل، وإنه لم يأت شيء إلى الوجود عن طريق الصدفة، كما تدعي نظرية التطور. ومع هذا لا يزال كثير من الناس يتبنون هذه النظرية بشكل قوي، فكيف يمكن هذا؟

السبب هو: أن النظرية هي أكثر تعبيراً عن الإيمان اليقيني بعيداً عن الصياغة العلمية. إنها العقلية التي لا ترى التطور مجرد نظرية يمكن البحث في صحتها من قبل الوسائل العلمية. ولكن تراه اعتقاداً يجب أن يُصان مهما كلف الأمر. ولأن إيمانهم لا يمكن إثباته عن طريق الحقائق العلمية، حيث الناس بهذه العقلية لديهم رباط دوغماتي^(١) مع نظريتهم لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يتأثر بالبراهين العلمية التي دحضت النظرية. ولهذا مهما كانت الأدلة التي ضد التطور مقنعة، فلا يزال التطوريون مستمرون في تجاهلها ويدافعون ببسالة عن إيمانهم^(٢).

(١) الدوغماتية أو الدوغماتية هي: التعصب لفكرة معينة دون قبول النقاش فيها أو الإتيان بأي دليل ينقضها لمناقشتها.

(٢) النظرية الداروينية لن تلتفت لأي دليل يبطلها، لأن إبطال النظرية يعني إعادة السلطة اللاهوتية وهذا ما لا يريده أنصار الداروينية، فهم سيرفضون كل دليل عقلي أو منطقي أو علمي ينقض الداروينية وسيكون موقفهم مرتكز على العناد والتأويل المتعسف للأدلة المعارضة لهم، وهذا ديدن الكفار المعاندين أن يرفضوا ويردوا كل حق، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءَهُكَ بِجَدْلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥] قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

ولقد صادفت ظهور نظرية داروين جواً مناسباً؛ إذ كان ميلادها بعد زوال سلطان الكنيسة والدين وبعد الثورة الفرنسية والثورة الصناعية حيث كانت النفوس مهياً لتفسير الحياة تفسيراً مادياً بحثاً ومستعدة لتقبل أي طرح فكري يقودها إلى مزيد من الإلحاد والبعد عن

نظرية التطور عند الداروينيين هي أكثر بكثير من مجرد افتراض علمي. وحين تصبح نظريتهم مسألة تخضع للنقاش، فإن علماء التطور يفقدون على الفور الحياد والموضوعية العلمية. فهم يرتبطون بشدة مع نظريتهم حتى أن علماء الأحياء الأكثر تميزاً «يفضلون فقدان أيديهم من بدء الجملة بعبارة: «إذا كانت نظرية التطور صحيحة ...»»^(١) فهم لا يريدون حتى أن يعتبروا نظرية التطور: قد لا تكون صحيحة^(٢).

لم يعتاد الناس على رؤية هذا الموقف من العلماء. فهم عموماً يتخيلون أن الخطاب العلمي مستقل عن أحكام العالم المسبقة الفلسفية والعقائدية وأن العلماء هم أفراد موضوعيون يثبتون الحقائق بأدلة ملموسة وبراهين أثبتت التجربة صحتها. لهذا السبب نادراً ما يشك الناس في صحة نظرية التطور.

وعلماء التطور عندما يناقشون نظرية التطور فإنهم لا يبالون بالمعايير العلمية. فهذا الدارويني البارز، «بيير شاردين» (Pierre Chardin)، يكشف بكلماته موقع «العلم» في النظرة الداروينية:

«هل نظرية التطور علم، أم فرضية؟ هي أكثر من ذلك بكثير. إنها مسلمة عامة لكل النظريات، ولكل الفرضيات، ومن الآن فصاعداً يجب على جميع الأنظمة أن تتحني لها، ويجب أن ترضى لكي تكون صحيحة ومحتملة القبول. التطور هو النور الذي ينير كل الحقائق، ومسار يجب أن تتبعه جميع خطوط الفكر. هذا هو التطور»^(٣).

التفسيرات اللاهوتية مصيبة كانت أو مخطئة. وقد وجد اليهود والقوى الهدامة فيها ضالتهن المنشودة فعملوا على استغلالها لتحطيم القيم في حياة الناس... ونتيجة للنظرية لم يعد معنى لمدلول كلمة: آدم، حواء، الجنة.. وسيطرت الأفكار المادية وتخلت جموع غفيرة عن إيمانها بالله تخلياً تاماً أو شبه تام، وظهرت عبادة الطبيعة... ونتيجة للنظرية لم يعد هناك حاجة من البحث في الغاية والهدف من وجود الإنسان وطلعت على الحياة فوضى عقائدية واستبد شعور باليأس والقنوط والضياح، وظهرت أجيال حائرة مضطربة ذات خواء روحي، وقد كانت نظرية داروين إيداناً وتمهيداً لميلاد نظرية فرويد في التحليل النفسي وميلاد نظرية برجسون في الروحية الحديثة وميلاد نظرية سارتر في الوجودية وماركس في المادية». انظر المعجم الفلسفي لمصطفى حسية (٢١٧) (المترجم)

(1) "Darwin's Death in South Kensington," Nature, February 26, 1981, vol. 289, p. 735.

(٢) مدار مذهب الدارونية قائم على التعصب وليس على البرهان والدليل، فقد اثبت العلم الحديث بطلان نظرية التطور، فلم يبق لهم سوى التعصب ورفض الحق، والمكابرة والمجادلة بالباطل، والإصرار على الكفر، ومحاربة أهل الحق قال تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ [غافر: ٢٥] وحين يقدم الدليل للناس، فلا تتوقع منهم الانصياع للدليل، فكثير من الناس يكرهون الحق لذاته كما قال تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كِرْهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠] فالمتعصب والمقلد الأعمى لو أقمت عليه كل حجة، وأقمت عليه كل دليل لن ينصاع لك بل سيبقى في غبه، قال تعالى ﴿وَإِذَا تَنَادَّ عَلَيْهِمْ إِلَهُنَا يَتَّبِعْتِ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانْتُمْ بَعْدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [سبا: ٤٣] فهكذا دائماً موقف المتعصب من الحق. ولقد رأينا هؤلاء الداروينيين في المحاورات والمناقشات كيف يرفضون الحق البين، وقد زادوا على الطين بله أنهم يزعمون أنهم أصحاب الدليل، وأن غيرهم جاهل مقلد لأسلافه، فجمعوا بين سوأين، بين رفض الحق وادعاء العلمية، وهذا من شر البلية. (المترجم)

(3) Francisco Ayala, "Nothing in Biology Makes Sense Except in the Light of Evolution: Theodosius Dobzhansky, 1900-1975," Journal of Heredity, vol. 68, no. 3, 1977, p. 3.

كما يمكن أن يرى في الاقتباس أعلاه، أن المصطلحات المستخدمة من قبل الداروينيين حول نظريتهم تعطي مؤشرات هامة عن موقفهم العقائدي والولاء الأعمى. خذ أمثلة أخرى، أحد رواد أنصار التطور في العالم، «ج. هاربر» (G. Harper)، يسمي نظرية التطور «الاعتقاد الميتافيزيقي»^(١)

ويسمى البيولوجي التطوري اللامع في جامعة هارفارد، «إرنست ماير» (Ernst Mayr)، «رؤية الإنسان العالمي اليوم»^(٢). وربما أعظم تطوري بارز في القرن العشرين «السير جوليان هكسلي» (Sir Julian Huxley)، رأى أن التطور هو «عملية كونية سائدة على الجميع» وأنه «الحقيقة كلها»^(٣). ورائد الوراثة التطورية في وقتنا الحاضر، كتب نعيًا «لثيودوسيوس دوبجانسكي» (Theodosius Dobzhansky) (الذي يحتمل هو أيضًا واحد من التطوريين في زمن وفاته في عام ١٩٧٥)، يقول إن الرؤية التطورية لدوبجانسكي جاءت تبعًا لدي شاردين. و«كارل بوبر» (Karl Popper)، وهو أحد رواد فلاسفة العلم في العالم، قد ذكر أن التطور ليس نظرية علمية ولكن برنامج بحث ميتافيزيقي^(٤). وقد وصلت «ليبسون» (Lipson) في أعقاب هذه التعاريف إلى الاستنتاج التالي:

«في الواقع، أصبح التطور بالمعنى «دين علمي»؛ تقريبًا قد قبلها جميع العلماء، وكثير منهم على استعداد ليحوروا ملحوظاتهم كي تتلاءم معها»^(٥)

من المهم ملاحظة الكلمات والعبارات التي يستخدمها المؤلفون المذكورون آنفا حين يناقشون الداروينية، فهم لا يذكرون أي إشارة إلى أي أدلة رياضية أو علمية ثبتت بالتجربة أو الملاحظة كي تدعم ادعاءاتهم. بل يقدمون أوصافًا غريبة، فيسمون التطور «الحقيقة كلها»، «العملية السائدة على الجميع»، «الضوء الذي ينير كل الحقائق».

لا أحد يجعل مثل هذه التأكيدات العقائدية أو التفسيرات الميتافيزيقية أو الاستنتاجات المبالغ فيها للإشارة إلى الحقائق العلمية التي تم قبولها بسهولة كقانون الجاذبية، أو دوران الكرة الأرضية، أو قوانين الديناميكا الحرارية. ولا أحد يجعل مثل تلك المزاعم المبالغ فيها عن نيوتن، أو آينشتاين أو أي عالم آخر. فلا أحد يسمي قانون الجاذبية «الاعتقاد المقنع»، ولا أحد يقول عن قوانين الديناميكا الحرارية، «أود أن أفقد يميني بدلا من بدء الجملة بعبارة» إذا كانت صحيحة...

إن ما يقوله هؤلاء الناس، يعطي انطباعًا أنهم أدوا القسم لحماية دينهم تحت أي ظرف. وبالتالي، فإنهم لا يحتاجون إلى اتباع الأسلوب العلمي أو توظيف الخطاب العلمي. فهم لا يشيرون إلى أي تجربة أو نتائج وإنما مجرد استخدام كلمات ذات دلالات ميتافيزيقية. إذا تم التدقيق في الكلمات، فإنها تظهر صورة مثيرة: «العقيدة التطورية»!، «الإيمان العلمي»!، «إيمان مقنع»!، «رؤية عالم الإنسان

(1) G.W. Harper, "Alternatives to Evolutionism," School Science Review, vol. 51, Sept., 1979, p. 16.

(2) Ernst Mayr, "Evolution," Scientific American, vol. 239, Sept., 1978, p. 47.

(3) Julian Huxley, "Evolution and Genetics," Ch. 8 in What is Science?, pp. 272 and 278.

(4) The Philosophy of Karl Popper, vol. 1, pp. 143 and 183.

(5) The Long War Against God, p. 127.

اليوم»!، «طريقة الترويج»!، «الحقيقة كلها»!، «الضوء الذي ينير كل الحقائق»!، «الإيمان الغيبي»!، «برنامج البحث الميتافيزيقي»!، «المدار الذي يجب كل نظام فكري أن يتبعه»!...

ولو تم دراسة الأدب التطوري أكثر من ذلك، فسيجد كثير من الأمثلة للطبيعة الدينية لهذه العقيدة، ويرى أنه يظهر في كل ظاهرة اجتماعية ونفسية من وجهة نظر النظرية التطورية. يصف عالم الأحياء من جامعة سيدني، «ال. بيرتش» (L. Birch)، وعالم الأحياء من جامعة ستانفورد، «ب. إرليخ» (P. Ehrlich)، العقيدة التطورية بهذه الطريقة:

«لقد أصبحت نظريتنا التطورية ... واحدة لا يمكن دحضها من قبل أي ملاحظة ممكنة. كل ملاحظة يمكن تخيلها يمكن أن تتناسب معها. ومن ثم هي «خارجة عن العلم التجريبي» ولكن ليست بالضرورة كاذبة. لا يمكن لأحد أن يفكر في السبل التي يمكن اختبارها فيه. فالأفكار تتحقق إما دون أساس أو بناء على عدد قليل من التجارب المخبرية التي أجريت في نظم مبسطة للغاية حيث نالت رواجاً إلى ما هو أبعد من صحتها. لقد أصبحنا جزءاً من العقيدة التطورية يقبلها معظمنا كجزء من تدريبننا»^(١).

(1) L.C. Birch and P.R. Ehrlich, Nature, vol. 214, 1967, p. 369.

الاعتقاد أن الصدفة هي التي أنشأت الخلق لا يمكن أن يُبنى على برهان علمي صحيح؛ بل على «إيمان أعمى»، فالصدفة لا يمكن أن تفعل هذا الكون الرائع الدقيق المتقن، وإلا لكانت الصدفة عاقلة حكيمة، نحن قد نصدق أن يرمي شخصاً قطعة معدنية لأعلى ثلاث مرات متتاليات ثم تسقط ويكون وجهها لأعلى ثلاث مرات متتاليات، ونجد صعوبة في أن يتحقق ذلك في مئة مرة متتالية، ولا يمكن بحال أن نصدق أن تكون القطعة المعدنية تقذف (1 × 2) وتكون في كل الرميات على وجهها، فهذا مستحيل استحالة تامة أن يحدث بالصدفة، والتطوري يؤمن بأشد من هذا فهو يؤمن أن هذه المخلوقات المذهلة جاءت هكذا عن طريق الصدفة، فالتطوري يلغي عقله وفكره ويتجه نحو التسليم و«الإيمان الأعمى» بصحة أن الصدفة تخلق عالماً حيوياً متناهماً في الاتقان والكمال. وقد اعترف عالم الأحياء «جاك مونو» (Jacques Monod)، الحائز على جائزة نوبل، في كتابه الصدفة والضرورة قائلاً: «الصدفة وحدها هي مصدر كل إبداع، وكل الخلق في المجال الحيوي» انظر:

<https://answersingenesis.org/evidence-against-evolution/probability/does-it-really-take-more-faith-to-believe-evolutionary-ideas/>

وحين يزعم "دوكينز" ويدعي أن داروين قد جعل لا حاجة لله في علم الأحياء، وإنما يكون بحاجة للإله من كان يؤمن بالإله ليملأ الفجوات. طبعاً كلام "دوكينز" ليس كلاماً علمياً بل هو ادعاء لتغطية الحقيقة أن الدارونية ليست لديها برهان علمي، فمن أسس الإلحاد أن يؤمن دون إدراك للحقائق، ويؤمن بالاحتماليات الغامضة والمحيرة للعقل، فمثلاً في كتاب «المبدأ الكوني البشري» يضع العالمان «بارو» (Barrow) و «تبيلر» (Tipler) عشر خطوات أساسية يحتاجها التطور البشري كي يصل إلى الإنسان الحديث. وكل هذه الخطوات مستبعدة تماماً ولكي تحدث هذه الخطوات فلا بد أن تحترق الشمس وتندثر، وتزول الأرض. فالرقم الذي استخدمه العالمان لحساب حدوث الصدفة وحدوث التطور الموجه للجينوم البشري هو بين هذه القيم: ١١٠٠٠٠^{١٨٠} و ١١٠٠٠٠^{٣٨٠} -^{٤٤}

باعتبار أن عدد جزيئات الإلكترون في الكون المعروف هو تقريباً ١٠^{٨٧} - حتى هذا العدد لا يمكن إدراكه (١٠^{٨٧}) ومقارنة هذا الرقم مع الرقم الذي بالأعلى سيكون كأنه لا شيء. ولو تحدثنا بعقلانية فإن اعتبار الصدفة في حدوث الخلق أمر مستحيل، ولكن الداروني ليبقى على عقيدته ليس لديه خيار إلا أن يؤمن بطريقة عمياء بصحة النظرية. ويجادل بالباطل ليدحض به الحق ويقول إننا لسنا بحاجة للإله. (المترجم)

التطوريون المعاصرون أكثر تشدداً من داروين

الموقف العقائدي في التطور الحديث هو أكثر جموداً من داروين نفسه. عندما اقترح داروين هذه النظرية، ترك مجالاً لاحتتمال أنه يمكن قد ارتكب خطأ ما. في كتابه «أصل الأنواع» يبدأ في كثير من الأحيان مقاطعه بهذه العبارة «إذا نظرتي صحيحة». وفي أبحاثه يمكن ملاحظة أن داروين قبل بعض المعايير العلمية واقترح بعض الطرق التي يمكن بها دراسة نظريته. على سبيل المثال، كتب عن السجل الأحفوري:

«إذا كانت نظرتي صحيحة، فبكل تأكيد أن أنواعاً متوسطة لا تحصى، التي تربط بشكل وثيق جميع الأنواع من نفس المجموعة مع بعض، كانت موجودة... ونتيجة لذلك، فإن الدليل على وجودها السابق يمكن أن يوجد فقط بين الرفات الأحفوري»^(١).

لم يتم العثور أبداً على الأصناف المتوسطة التي ذكرها داروين وقال إنها لا تحصى، وكثير من علماء الأحافير التطوريين تخلوا اليوم عن هذا الأمر. فلو أخذ في الاعتبار شرط داروين «إذا كانت نظرتي صحيحة» فإن نظريته يجب أن ترفض. لو كان داروين حياً اليوم، ربما قد تخلى عن نظريته لهذا السبب بالذات.

ولكن يظهر التطوريون المعاصرون لا مبالاة وتعصب غير عادي فيما يتعلق بهذا الشأن. ظهر في إحدى المجلات التطورية البارزة في تركيا، «العلم واليوتوبيا»، مقالاً للدكتور «أوميت ساين» (Dr. Umit Sayin)، الذي عُرف بأنه قائد وطني تطوري. وقد كتب الدكتور ساين عن مقاله داروين فيما يتعلق بالأشكال الوسيطة التي قال عنها داروين: «إذا كانت نظرتي صحيحة... الدليل على وجودها السابق ربما يمكن أن يوجد فقط وسط بقايا الأحفورة» ما يلي:

«حقيقة أن الأركيوبتركس Archaeopteryx كان ديناصوراً طائراً له أهمية قليلة فيما يتعلق بصحة أو قبول نظرية التطور. حتى لو لم يتم العثور على الحلقة المفقودة، فإن نظرية التطور لن تتأثر... لنفترض أننا لم نجد الأحفورة بعد؛ فهذا يدل على أن كل الأشكال الوسيطة قد فقدت وتشتت في الطبيعة. دعنا نقول أن كل أحفورة هي خدعة! حتى هذا لن يؤثر على نظرية التطور، لأن الأحافير، والأركيوبتركس، والأشكال الانتقالية هي ضرورية فقط لتفسير العملية»^(٢).

وبعبارة أخرى، يقول هذا الكاتب أنه «حتى لو لم نجد بقايا الأحفورة، فإنه يجب أن يبقى إيماننا بالتطور». وبالرغم أن داروين في هذا الأمر كان لديه معياراً هاماً لصحة نظريته، إلا أن هذا الكاتب وضعه جانبا وحافظ على اعتقاده في التطور، على أي حال، هذا يثبت أن الداروينية اعتقاد دوغماتي لا يعتبر المعايير العلمية.

(1) The Origin of Species: A Facsimile of the First Edition, p. 179.

(2) Umit Sayin, "Uçtu Uçtu Dinozor Uçtu" ("The Dinosaur is Just About to Fly"), Bilim ve Utopya, November, 1998.

الاستبداد الفكري

الكلمات المقتبسة المذكورة بالأعلى من كلام التطوريين تبدو أنها وضعت في مرتبة وهمية فوق جميع أتباع الديانات الأخرى. وفقاً لتفكيرهم المشوه، فإن التطور هو «الحقيقة الموضوعية» الوحيدة، وينادي التطوريون، بدافع من هذا الوهم، الديانات الأخرى أن تخضع إلى فهم العالم التطوري. ولو قبلت الديانات الأخرى التطور ونظرياته المقترحة، فإنه سيسمح بوجودها باعتبارها «مذاهب أخلاقية». وأحد الأسماء الشهيرة في مدرسة الداروينية الحديثة، «جورج جايلورد سمبسون» (George Gaylord Simpson)، يعرب عن هذا المنهج قائلاً:

«بالطبع فإنه لا تزال توجد بعض المعتقدات الحالية، وصفت بأنها دينية ومتضمنة للعواطف الدينية، وهي بشكل قاطع لا تتوافق مع التطور، وبالتالي لا يمكن الدفاع عنها فكرياً على الرغم من جاذبيتها العاطفية. لذا، فأنا أعتبرها ببساطة، لا تتطلب مناقشة، خاصة أن التطور والدين الحق متوافقان»⁽¹⁾.

وهذا يعني أن التطور والمذاهب «العلمية» التي تطورت منها هي التي لها الحق أن تحكم على الأديان الأخرى. حيث يندرج الدين ضمن سلطة نظرية التطور. إنها تقرر أي من الأديان والتفسيرات التي تُقبل كحقيقة. ووفقاً لهذه الطريقة المتحيزة في التفكير، فإن الدين يمكن أن يكون فقط تحت مرجعية تعليمية يهدف إلى تحديد معايير النشاط الأخلاقي الإنساني.

النهج الاستبدادي الذي يدفع الناس ليجبرهم على اعتقاد ما يعتقده الآخرون يتمثل في القرآن الكريم. في عبارة فرعون المصري القديم قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

هذه هي الطريقة في التفكير الشائع اليوم بين أنصار التطور. فنهجهم مشابه إلى حد كبير نهج فرعون؛ وفي حين تفرض نظرية التطور على الشعوب، فإن الأوساط العلمية تبقى تحت المراقبة مع تقديسهم للتطور. وبسرعة يتم استبعاد أولئك الذين لا يؤمنون به. ويسمى أستاذ علم التشريح الشهير الدكتور «توماس دوايت» (Dr. Thomas Dwight)، هذا الوضع بـ«الاستبداد الفكري»:

« طغيان العصر في مسألة التطور أمر ساحق لدرجة أن غير المنتمين في نظرهم لا يعلمون شيئاً... هناك اضطهاد كما في أيام الإرهاب. كيف تتجرأ قلة قليلة من قادة العلم أن تقرر أن الحقيقة متعلقة بحالتهم الذهنية»⁽²⁾.

والواقع أن التطور هو دين خرافي يمسك كتلة الجماهير تحت سيطرته، لكنه بالتأكيد ليس علماً. فلو تمت دراسة ما يقوله أنصار التطور في كتاباتهم بدقة، فسوف يسهل عليك أن تكون قادراً على

(1) Darwin on Trial, p. 128.

(2) Why Be An Ape...? www.picknowl.com.au/homepages/rlister/sermons/ape/ape.htm

قراءة ما بين السطور وإدراك أنهم يتحدثون عن دين. عندما ينظر إليه من هذا الجانب، فستجد أن ما يقوله مؤرخ العلم البارز، «مارجوري قرين» (Marjorie Grene)، حول هذا الموضوع ليس مفاجئاً:

«تعتقد الداروينية بشكل أساسي أنه دين العلم، وتعرضه على عقول الناس. وإذا كان أصل الحياة، والإنسان، وآمال الإنسان العميقة، والإنجازات الرفيعة من إرادة خارجية وغير مباشرة يكون احتمال الخطأ فيها ضئيل. يبدو كأنه حجر الزاوية للكون الطبيعي ... واليوم تلاشى كل شيء. فالتغيير، جعلها عقيدة تبشر من قبل أتباعها بتوقد وحماس ديني مع إن خصائص النظرية الداروينية لا تزال هي نفسها، والشك الذي يشعرون به، هو فقط من قبل قلة مشوشة الذهن بالإيمان العلمي»^(١).

ومع جميع العناصر الدينية التي تكون في خطاب الداروينيين، إلا أنهم لا يزالون يزعمون فرضية النظرية العلمية، وحفزوا الناس على قبولها كحقيقة، بصرف النظر عن أنه لا يوجد أي دليل علمي يدعمها، فإن السبب في هذا النهج العقائدي يمكن أن يكون فقط لتجنب الحقيقة: أنهم سيجدون الحق حين يتخلون عن التطور بأن الله خالق الكون وكل الكائنات الحية. وهذا لا يمكن أن يقبل من أولئك الذين يفهمون العالم من وجهة نظر مادية إلحادية.

لهذا السبب فإنه مهم للغاية أن يكون أصحاب الوعي والفكر مدركين خطر تأثير هذا الدين الخرافي على العالم، ومن ثم يتخذون موقفاً لما هو حق وصواب. وأول خطوة في هذا الاتجاه هو الفهم الصحيح لعقائد الدين الوثني غير العقلاني. وبعد ذلك، تقدم حقيقة الخلق مع البرهان الناصع مما يجعل هذه الخرافة واهنة، كما يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]^(٢).

(1) M. Grene, Encounter, Nov., 1959, pp. 48-50.

(2) يتضح أن التعصب إحدى الركائز الأساسية في الداروينية، لذا لا نستغرب أن يمتنع الداروينيون عن الامتثال للحق، فالحوار مع الدارويني لا يكفي بل لابد من دعوته أولاً للتجرد للحق، وهذا هو المنهج الإسلامي حين يخاطب الكفار أن يبين لهم أن المانع لهم من اتباع الحق ليس عدم وجود الدليل الدال على الحق؛ ولكن المانع هو التعصب الأعمى، لذلك دعا الإسلام إلى أن يستعمل المرء عقله ويتفكر في آيات الله الكثيرة قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطِيَكُمْ يُوحِيْدَةً أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْئِي وَفَرْدِي ثُمَّ تَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦] ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠] فالمقلد لأبائه وقومه دون وعي ودون تأمل لن يدرك الحق قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠] وهذه أزمة كثير من الناس أنهم يلغون شخصيتهم، ويعطلون ملكات فكرهم فهم كما قال تعالى ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢].

المنهج الإسلامي في باب الاعتقاد كان صارماً وواضحاً، يعتمد على الدليل الذي لا ريب فيه قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]. قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ نَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨] فالإنسان لا يبني عقيدته على أوهام وأباطيل لا أصل لها، وديدن الداروينيين حين تسألهم عن البرهان الدال على «النشأ والترقي» يقول لك، العلماء يقولون ذلك. وما الذي يثبت قول العلماء؟ قالوا: الأحافير الانتقالية. وهل وجدت الأحافير الانتقالية التي تثبت انتقال القرد إلى إنسان. قالوا: لا. إذن، فلماذا تؤمنون بشيء لم يثبت. قالوا: هكذا وجدنا علمائنا. فيصدق فيهم قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]

أصول دين الدارونية

«أصبح من المعتاد أن تقيد بداية هذه النظرية لتشارلز داروين وأسلافه المباشرين، مع إنه يمكن تتبع الشكل البدائي لهذه الفكرة لتعود إلى بدايات التاريخ المكتوب. في الواقع، الاعتقاد أن الحياة تعود أصولها إلى مادة أساسية واحدة هو أمر واسع الانتشار بين مختلف شعوب العالم، البدائية أو المتحضرة، ويمكن أن يعتبر هذا الأمر واحد من الموضوعات العالمية القليلة في تاريخ الأفكار».

(إرنست ابل (Ernest. Abel)، المشاهدات القديمة عن أصل الحياة، صحيفة جامعة فريدي ديكنسون)، ١٩٧٣، ص ١٥.)

لو سئل أي شخص، «ما الدين؟» ربما يجيب أن الدين يشمل الشرائع السماوية التي تهدي الإنسان إلى منهج الله تعالى وللخير المطلق. ولكن هذا التعريف لا ينطبق على العديد من الأديان في عالم اليوم. ويمكن تقسيم الأمر إلى مجموعتين رئيسيتين: تلك الأديان التوحيدية كالإسلام والمسيحية واليهودية والتي تقوم على الوحي من الله للبشرية من خلال الأنبياء، والأديان الخرافية التي ابتدعها البشر والتي ليست سوى عدد قليل من حكايات العجائز.

تدعو الأديان السماوية إلى التوحيد والإيمان بآله واحد، والإيمان برسله وكتبه المقدسة واليوم الآخر والمصير إما إلى الجنة أو النار. على النقيض من ذلك، الأديان الخرافية، تنفر الناس من الحق، وتجرحهم إلى الطوطمية^(١)، والوثنية، والطوائف المنحلة، وتملاً حياتهم بعقائد ومذاهب غريبة لا تعد ولا تحصى، وبالأسحار والعزائم، والطقوس والتقاليد. بعض أولئك الذين يعتنقون هذه الأديان يعبدون الطواطم، وآخرون يعبدون الشمس؛ وبعضهم يؤمن بالغرائب، وبعضهم يؤدي طقوساً أمام الأصنام المصنوعة من الحجر أو الخشب، وتقديم الهدايا لاسترضائهم رجاء أن ينالوا النفع منهم. عندما يبرق البرق، فإنهم يفترضون أن واحداً من الآلهة غاضب. وحينما تمطر السماء يعتقدون أن

الفكر الغربي اليوم يعيش نزوعاً حاداً نحو المادية فهو لا يريد أن يؤمن إلا بالحس، ولكن في نظرية داروين ألغى منهجه المادي تماماً؛ بل ألغى عقله وتفكيره، فالدارويني يتحتم عليه أن يؤمن بغيبات كثيرة لا برهان لها كي يأخذ بالدارونية، فهو يؤمن أن المخلوقات جميعها كان بدايتها خلية واحدة، وهذا غيب. ويؤمن أن الكائنات الحية تظهر من مواد غير حية، وهذا غيب. الخ النظرية كلها مبنية على الإيمان بالغيب الذي لا وجود له. فالعقل الغربي المادي ليس مادياً في إيمانه بنظرية داروين؛ بل ترك المادية جانباً وترك العلم في الجانب الآخر وذهب ليعتقد بهذه النظرية كي لا يكون هناك أي سلطة عليا عليه، فهم يرون أنه لم يعد لله حاجة كما قال الداروني «جوليان هكسلي»: «بعد أن ارتقى الإنسان سلم التطور إلى قمته وصار قوياً وبإمكانه السيطرة على الطبيعة، لم يعد بحاجة إلى الله ليعبده ويعينه كما كان يفعل الأوائل أيام ضعفهم». وهم يصرحون بأنهم لا يملكون دليلاً على نظريتهم ولكنهم لا يريدون الإيمان بالله تعالى، يقول «آرثر كيت» الدارويني المتعصب: «إن نظرية النشوء والارتقاء لا زالت بدون براهين وستظل كذلك، والسبب الوحيد في أننا نؤمن بها هو أن البديل الوحيد الممكن لها هو الإيمان بالخلق المباشر، وهذا غير وارد على الإطلاق». إنه الكبر والجهل، والحقيقة أن العقل الغربي حين أراح فكرة الألوهية من فكره سقط أسيراً تحت سطوة سلطة الهوى والرغبات والشهوات ففقد كثيراً من المعاني الإنسانية. (المترجم)

^(١) الطوطمية هي ديانة مركبة من الأفكار والرموز والطقوس تعتمد على العلاقة بين جماعة إنسانية وموضوع طبيعي يسمى الطوطم، والطوطم يمكن أن يكون طائر أو حيوان أو نبات أو ظاهرة طبيعية أو مظهر طبيعي مع اعتقاد الجماعة بالارتباط به روحياً وكلمة طوطم مشتقة من لغة الالبجوا الأمريكية الأصلية. ويكيبيديا.

الإله ييكي. ويسمى القرآن هذا الشخص الذي يعتقد مثل هذه الأشياء مشرك، أي: الشخص الذي يشرك ليساوي الله مع خلقه؛ وفي الأدب الغربي يُسمى وثني. مثل هؤلاء الناس ليس للعقل والوعي والمنطق أو حقائق العالم مكان في حياتهم.

والتفسيرات التي يقدمونها عن تشكل الحياة ووجود الكائنات الحية هو امتداد لنفس المنهج الجاهلي. وقديماً كان يعتقد أن الكون وكل الكائنات الحية تكونت من الهواء والماء والنار، أو أنها جاءت من الفضاء الخارجي. وكان هناك اعتقاد شائع آخر هو أن الكون كان وجوده أزلي، وأنه سيبقى في الوجود للأبد. وتؤكد الديانات الوثنية أن الكون أوجد في الوجود من قبل آلهة الخشب والحجر التي يعبدونها. وبناء على هذا الاعتقاد الضال، فإن كل إله خلق قطعة من الكون، فإنه يحكم على الجزء الذي أوجده. فإنه يحكم السماء، وآخر يحكم البحر، وآخر الأرض والبشر.

تظهر دراسة الأديان المقارنة أن عددا كبيرا من الأديان الخرافية تأثرت من بعضها، ويمكن الكشف عن كثير من أوجه التشابه في معتقداتهم ومذاهبهم. وقد والديانات الوثنية القديمة في اليونان وبلاد ما بين النهرين شكلت أساساً لكثير من الديانات الحديثة التي تبنت معتقداتها ومذاهبها. وإحدى الأديان الخرافية التي انبثقت منها هو دين الداروينية.

هناك عديد من أوجه التشابه بين الداروينية والأديان الخرافية الأخرى فيما يتعلق بفهمهم لتشكيل الكون والكائنات الحية وفي معتقداتهم ومذاهبهم بشكل عام. وعلى عكس ما يعتقد عدد كبير من الناس، لم تؤسس الداروينية على نظرية علمية ثابتة تستند على أسس حقيقية وملحوظات وتجارب؛ بل مجرد محاولة عقلانية بُنيت على أسس غير علمية لتفسير الكون. في سياق هذا الكتاب سيتم مقارنة الداروينية مع أديان أخرى صنعها الإنسان وذلك فيما يتعلق بأصولها، ومؤسستها، وكتابها المقدس، وفهمها للعالم، والأنشطة التبشيرية لها^(١).

(١) الدين هو المعتقد، فالدين عقائد يعتقدونها المرء، فما يعتقد المرء اعتقاداً جازماً لا يتطرق إليه الشك فهو دين، لأن الدين في أساسه مبني على الاعتقاد. فالاعتقاد يحدد طبيعة العلاقة مع الله تعالى ومع الناس ومع الموجودات، فمن اعتقد أن الله خلق الإنسان فسيخضع ويذل وينكسر لله تعالى، ومن اعتقد أن الطبيعة هي التي خلقت الإنسان فسيخضع للطبيعة ويذل لها. ووفق اعتقاد المرء تكون الغايات، فمن اعتقد أن الله هو الخالق فسيبحث عن الغاية التي من أجلها خلق الله تعالى العباد، ومن اعتقد أن الصدفة العشوائية هي التي خلقت فلن يبحث عن علة أو غاية من خلقه؛ لأن الصدفة لا إرادة لها. فمثلاً يعتقد دوكنز الدارويني الملحد أن الناس الذين يعتقدون أن الحياة أنشئت لغاية ليس فقط مخطئون، بل هم جاهلون: «فهم أميون علمياً»، فنحن نؤمن أننا موجودون من أجل هدف أسمى. فالقراءة العلمية ليس فيها سبب» لماذا «نحن موجودون، ولكننا نحن هكذا وجدنا كحدث تاريخي. ويقول دوكنز أيضاً: لا يوجد أي دليل يؤيد الإيمان بالله، وأنه في الوقت الحاضر المتعلمون الأفضل هم الذين ينكرون الله. فالرسالة الرئيسة من الكتابات الضخمة للداروين ريتشارد دوكنز هي: أنه ليس هناك أي تصميم، ولا أي غاية، ولا خير ولا شر، ولا شيء سوى اللامبالاة العنيفة». انظر <http://www.icr.org/article/effect-darwinism-morality-christianity> ومن اعتقد أن الله عز وجل هو الخالق فستكون لديه قيم أخلاقية لأن الله خلقه لغاية، بينما من اعتقد أن الصدفة أوجدته فلن يبحث عن القيم الأخلاقية لأن الخالق (الصدفة) ليس لديه قيم أخلاقية ولا يعرفها. ومن اعتقد أن الله سبحانه هو الخالق فسيسعى لمعرفة الخالق كي يحقق مرضاة خالقه، ومن اعتقد أن الصدفة أوجدته فلن يسعى لمعرفة الصدفة لأنه ليس للصدفة وجود، وسيرى كل أحداث الكون تجري وفق نظام عشوائي لأن الصدفة لا تعرف النظام والدقة.

ومن اعتقد أن الله تعالى خلقه فسيعمل صالحا لأنه يرجو لقاء الله تعالى قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠]، وأما من اعتقد أن الصدفة خلقتة فلن يبالي عمل صالحاً أو سيئاً لأنه لا يرجو لقاء خالقه .

ومن اعتقد أن الله عز وجل خلقه فسيبحث عن المنهج الرباني الذي رسمه له الخالق، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّا صَلَاقِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢] بينما من اعتقد أن الصدفة خلقتة فسيعيش هملاً لا منهج له في هذه الحياة إلا ما يمليه عليه هواه.

وشأن الإنسان في الفلسفة الطبيعية، كشأن بقية الكائنات الأخرى حيث يرتبط بالجانب المادي ، فالأشياء المادية هي أساس تشكل الكون التي يتركب منها الإنسان، فبالإضافة إلى قانون التطور العام الذي قال به انكسمندرس وكذلك قال به أمبادوقليس ثم نادى بهذا انكساجوراس أن التطور قانون يحكم الكائنات العضوية بما فيها الإنسان، نجد ديموقريطس يقول بالتولد الذاتي للإنسان من الطين بلا قصد ولا غاية، فالحياة ظهرت هكذا تلقائياً. والقول بتولد الكائن الحي من غير الحي يعود إلى الأسطورة المصرية القديمة (ايزيس وأوزوريس) حيث كانوا يعتقدون بتولد الضفادع والديدان من طمي النمل. وهذه الآراء تمثل البواكير والمقدمات الأولى لنظرية التطور التي نادى بها تشارلز داروين. (المترجم)

لا يوجد فرق بين الداروينية والأديان الأخرى المبتدعة

لم يكن أصل الداروينية بالنظرية والملحوظات والأبحاث التي أنشأها الهاوي تشارلز داروين وغيره من العلماء في القرن التاسع عشر. بل يعود أصلها بوقت كثير إلى الفلسفات المادية السابقة. المعتقدات الداروينية وُجدت أولاً منذ بضعة آلاف من السنين في الديانات الشريكية والمادية من اليونان وبلاد السوماريين. ولذلك، لم يكن تشارلز داروين أول شخص وضع فكرة التطور؛ هو كان باحثاً هاوياً تتبع الخطوط العريضة لهذا الاعتقاد الأساسي، وقدم نموذجاً لعقائده، ثم لاحقاً أسس النظرية.

تشكل الوثنية في نقوش السوماريين، التي تنكر الله وتؤكد على أن الكائنات الحية جاءت للوجود من خلال عملية تطورية، العمود الفقري للدين الدارويني^(١). وعندما تم فحص النقوش السومرية، كشفت عن وجود أسطورة تشير إلى أن البداية كانت فوضى مائي خرج منها إلهان: لهمو Lahmu ولاهامو Lahamu. وبناء على هذا الاعتقاد، فإن الإلهين خلقا أنفسهما أولاً، وتطورا في وقت لاحق، وجلبا مواد مادية وكائنات حية إلى حيز الوجود. وبعبارة أخرى، ظهرت الحياة كلها في لحظة من والفوضى المائي وعديم الحياة. واعتقاد التطورين أن الكائنات الحية تشكلت لأول مرة من مادة غير حية لديها كثير من القواسم المشتركة مع الاعتقاد السوماري بأن الكون نشأ من خلال عملية تطورية.

وحين دراسة الديانة المصرية القديمة، وجدت نفس المعتقدات. «وقيل إن الثعابين والضفادع والديدان والفئران خلقت من الطين الذي أودعته فيضان النيل^(٢)». وبعبارة أخرى، تنكر وجود الخالق، ويعتقد المصريون أيضاً أن الكائنات الحية خرجت من الطين بشكل عشوائي. وتتضمن أساطير الخلق لكل من المصريين والبابليين مفهوم «البحر البدائي الذي نشأت منه الأرض والحياة^(٣)».

إنه من الخطأ أن نعتقد مع ضبابية التاريخ ودمار الحضارات القديمة أن هذا المفهوم قد اختفى. فلا يزال يحتفظ التطوريون إلى اليوم الفكرة ذاتها. فلديهم اعتقاد أن أولاً كان هناك البحر والفوضى المائي، أو كما يسمونها، «حساء بدائي». وحسب نظرية التطور، جاءت قبل أربعة بلايين سنة بعض العناصر الكيميائية غير الحية في الغلاف الجوي للأرض البدائية والتي هي ضرورية لتطور الحياة، مثل الكربون والفوسفور، وعن طريق الصدفة جاءت معا في الماء تحت ظروف مناسبة وينسب صحيحة. في هذه الأثناء كانت هناك عواصف برقية وزلازل، فكانت اللبنة الأولى من الحياة،

(1) Dr. Kenneth Cumming, "The Collapse of the Theory of Evolution, the Fact of Creation," conference speech, April 4, 1998.

(2) Osman Gürel, "Yasamin Kokeni" ("The Roots of Life"), Pan Yayincilik, October, 1999, p. 4.

(3) <http://buglady.clc.uc.edu/biology/bio106/earlymod.htm>

الأحماض الأمينية، حيث جاءت إلى حيز الوجود. وبنفس العملية أصبحت هذه الأحماض الأمينية بروتينات، والبروتينات شكلت الخلايا، ومن خلال استمرار هذه السلسلة من الأحداث العشوائية، جاء الإنسان أخيراً إلى الوجود.

والادعاء أنه يمكن للمادة عديمة الحياة أن تتجمع لتشكيل الحياة لم يثبت بأي ملاحظة أو تجربة. إنه ادعاء خارج المفهوم العلمي. كل خلية حية تأتي إلى حيز الوجود من انقسام خلية حية أخرى. ولا أحد في العالم كله، حتى في أكبر المختبرات تقدماً، نجح في عمل خلايا حية من مواد غير حية، مما يدل على أن الخلية الأولى تم إنشاؤها بكل تأكيد بإرادة واعية.

الهندوسية بطقوسها المعقدة ومذاهبها الوثنية، لها أتباع كثر في جنوب آسيا، تأسست أيضاً على اعتقاد بأن جميع الكائنات الحية ظهرت من المحيطات. وقد تم شرح هذا الاعتقاد بالتفصيل في كتبهم المقدسة الـ ريج فيدا Rig Veda وأثروا فيدا Veda Atharva التي توضح المذاهب الهندوسية مع قصص من شخصيات أسطورية. والهندوسية ترفض فكرة وجود الخالق. وفقاً لفلسفتها، فإن الكون برمته تطور من كرة ضخمة، مثل كتلة الجوهر المادي، براكريتي^(١) prakriti. كل شيء، سواء كان حياً أو جامداً، تطور من هذه المادة البدائية. وفي نهاية كل فترة كونية يتحلل كل شيء إلى عناصره الأصلية، إلى براكريتي prakriti، وبعد ذلك تبدأ عملية تطورية كاملة مرة أخرى^(٢). وهكذا يتم إصلاح الكون من مادة أولية غير حية.

إحدى أكبر المآزق في دين الداروينية هي مسألة كيف جاءت الكائنات الحية الأولى إلى حيز الوجود. يفضل علماء التطور بشكل عام تجنب هذا السؤال لأن الإجابة الأكثر صلابة التي يمكن أن يقدموها لا تختلف عن إجابة الأديان السابقة منذ قرون مضت. وخلال الفترة التي تطورت فيها الداروينية، سادت اعتقادات خاطئة حول تشكيل الكائنات الحية؛ فالذباب جاء من العرق، والضفادع من الطين، والنمل من السكر.

واحدة من هذه المعتقدات التي لا معنى لها هي اعتقاد «المسخ الأمل» - أغرب نظرية في تاريخ التطور. يرجع هذا الاعتقاد إلى أنه لم يتم العثور على الحلقة المفقودة، وتحت قدر كبير من الضغط قرر بعض علماء التطور أنه لا حاجة لأشكال انتقالية لأن الانتقال من نوع إلى آخر قد حدث فجأة. وبالتالي، جاءت نظرية «المسخ الأمل». وفقاً لهذه النظرية، تشكل الكائنات الحية لا يختلف عن الادعاء بأن النمل جاءت من السكر. وظهر أول الطيور فجأة من بيضة الزواحف. ولاحقاً وبنفس الطريقة، جاء طائر آخر عن طريق الصدفة من بويضة أخرى. وجاء هذان الطائران معاً، وشكلا عائلة الطيور. وهناك نظرية مشابهة، اقترحها تشارلز داروين، هو أن الدببة التي أمضت كثيراً من الوقت في

(١) في الهندوسية تعني الطبيعة

(2) A Reasoned Look at Asian Religions, pp. 87-88; World's Religions, p. 108.

الماء تغيرت مع مرور الزمن إلى حيتان. ومع ذلك، فالحقائق العلمية اليوم تبين بجلاء كيف أن هذا الادعاء غير علمي وخادع^(١).

(١) لمزيد من التفصيل، انظر لهارون يحيى كتاب "خدعة التطور: انهيار العلمية الداروينية وخلفياتها الأيديولوجية" وكتاب "دحض الداروينية: كيف نظرية التطور انهارت في ضوء المعارف الحديثة".

استمرار نفس الفهم الوثني

إحدى خصائص الدين الوثني البارزة هي عزو القدرة إلى أصنام جامدة وإلى أشياء أخرى من الخشب أو الحجر، التي لا تقدر على الكلام ولا تملك أي قوة. حيث يتوقع الناس منها الخير. فهم يعتقدون أن هذه الأصنام الجامدة خلقت الكون وكل الكائنات الحية، وتجعل الكون في حركة، وهي قادرة على توفير احتياجات البشرية وتمنحهم الصحة والبركة. ومن المثير أن ترى نفس المعتقدات بين أنصار نظرية التطور الحديثة. فكما أن الوثنيين في العصور الماضية يعتقدون أن التماثيل الجامدة كانت لها القدرة على الخلق، فكذلك يعتقد أنصار التطور أن مادة غير حية تتألف من ذرات غير واعية لديها القدرة على الخلق. يزعمون أن المواد غير الحية تجمعت معاً عن طريق الصدفة، نظمت نفسها وشكلت الكائنات الحية التي لا خلل فيها ولا نقص، وتمتلك خصائص معقدة للغاية. ومن أبرز هذه الأصنام منذ العصور القديمة والذي حدث لها تغير فقط في الاسم هي «الطبيعة» أو «الطبيعة الأم».

تُعزى الأعاصير، والزلازل، والفيضانات الأرضية إلى «غضب الطبيعة الأم» أو ينظر إليها على أنها «تعبيرات للطبيعة»، ولكن لا أحد لديه أي تفسير لهذه القوة المسماة «الطبيعة». وكان هذا الاعتقاد نفسه موجوداً في المجتمعات الماضية ولكن تحت اسم مختلف. ففي الأساطير الإغريقية كانت الطبيعة الأم تسمى «غايا» وفي الديانات الوثنية كان تسمى بأسماء آلهة كثيرة. وما عمله التطوريون ببساطة هو تغيير الأسماء والرموز وعزو نفس القوة للذرات غير الواعية.

يعترف النشوئي بذلك بشكل علني. إذ اقترح عالم التطور «جيمس لوفلوك» (James Lovelock) ما يعرف باسم «نظرية غايا» التي تنص على أن كوكب الأرض هو شيء حي. فهذا مثال يوضح أن ما طرحه التطوريون كنظرية إنما هي معتقدات الديانات الوثنية التقليدية.

الإيمان بقوة الصدفة الإبداعية، والمادة الجامدة أو الذرات غير الواعية هو بالتأكيد مهزلة عقلية. تماماً كما اعتقد الوثنيون أن الأصنام غير الحية خلقت الأشياء الموجودة، ويعتقد التطوريون أن المادة غير الحية كونت الكائنات الحية. وأصل هذا الاعتقاد هو في رؤية أن كل شيء بطريقة ما إلهي، فالجمادات لديها ذكاء وإرادة، وهي قادرة على اتخاذ القرارات وتنفيذها.

يتحدث القرآن عن أولئك الذين يعبدون من دونه ويجعلون الأصنام آلهة. ويصف أيضاً الصراع بين أنبيائه وهؤلاء الناس. ومن تلك المجتمعات الوثنية التي يذكرها القرآن مجتمع إبراهيم: قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَأْتِ بِكُفْرٍ لَّعَلَّكَ تَلْمِزُهُ يَتَّخِذُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يَبْصُرُ وَلَا يُعْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]

فذكر في هذه الآية الكريمة، أن أبا إبراهيم وقومه أبدعوا أصناماً عاجزة لا حياة لها، صنعوها بأيديهم ثم اتخذوها آلهة. وعبدوها وافترضوا أنها تستطيع تلبية احتياجاتهم، وتشفي أمراضهم، وتمنحهم النعمة والبلاء.

عبادة الشمس

تشابه آخر بين معتقدات نظرية التطور الحديثة وتلك المجتمعات الوثنية الماضية هي أنهما يقومان على عبادة الشمس. وتعود عبادة الشمس إلى فترات مبكرة من التاريخ. فقد عرف الناس أن الشمس تمدهم بالضوء والحرارة، لذلك شعروا بأنهم مدينين لهذا الجرم السماوي واعتبروه إله. وهذا الاعتقاد المنحرف القديم جرف قديماً كثيراً من الناس عن دين الله الحق. ويلا مس القرآن هذا الموضوع مبيناً كيف أن قوم سبأ عبدوا الشمس في زمن سليمان: قال تعالى: ﴿وَجَدْتُهُمْ قَوْمًا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۝﴾ ^(١) أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿[النمل: ٢٥]

لا ريب أن الشمس تزود الأرض بالضوء والحرارة، ولكن الذي يستحق الثناء على هذا هو الله الذي خلقها. فالشمس كتلة مادية لا وعي لها. وقد مضى زمن لم تكن موجودة، وسوف تأتي لحظة ينفد وقودها وتنتهي. وربما يببدها الله قبل ذلك. فهو سبحانه خلق الشمس من لا شيء، مثل كل الأجرام السماوية، فالذي يستحق الثناء ويمجد على وجودها هو الله تعالى. في آية واحدة يعبر الله عن هذه الحقيقة قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَلْبَلُّ وَالنَّهَارُ وَاللَّيْلُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿[فصلت: ٣٧]

ومن المثير أن يلخص التطوريون المعاصرون المعتقدات الأساسية لعباد الشمس الأوائل بأنهم يدينون وجودهم للشمس. وعند النظر إلى بدايات التطور، هو الاعتراف أن الشمس مصدر لكل كائن حي في العالم. فتقول نظرية التطور، أن ضوء الشمس يسبب في ظهور أول الكائنات الحية الأولى على الأرض. وفي وقت لاحق كانت الطاقة الشمسية قد تسببت في تشكل وتحول أنواع الكائنات الحية. يقدم التطوري الأمريكي الملحد وعدو الدين، «كارل ساجان» (Carl Sagan) أفضل تلخيص لمنهج التطوريين لهذا الأمر في كتابه كوزموس (الكون)، قالاً:

«إذا كان علينا أن نعبد قوة أكبر من أنفسنا، فأليس من المعقول أن نعبد الشمس والنجوم؟ وفي نفس الكتاب، يقول: «عبد آباؤنا الشمس، وكانوا بعيداً عن حماقة» ^(١).

العالم «كارل ساجان»، وعالم الفلك التطوري «هارلو شابلي» (Harlow Shapley)، المعروف بقوله: «بعضهم بتقوى كتب، في البدء، كان الله ... ولكن أقول: في البدء، كان الهيدروجين». اعتقد «شابلي» أن العنصر الأول الذي كان موجوداً هو الهيدروجين، وأن هذا الغاز، مع مرور الزمن، طور نفسه نحو الإنسان والحيوانات والنباتات.

في جذور كل هذه الأفكار التطورية التي لا معنى لها يكمن تأليه الطبيعة والأشياء المادية؛ فدين التطور يتجه نحو عبادة الأشياء المادية والطبيعة. ولكن أي شخص يستخدم ذكائه يستطيع أن يفهم أن الكون ليس نتاج مادة غير حية وغير واعية؛ وعلى النقيض من ذلك، سوف نرى الذكاء في كل

(1) Cosmos, p. 243.

التفاصيل غير العادية، ونرى القصد والبراعة الفنية. إن وجود الله يُدرك من خلال خلقه المثالي والدقيق. ولكن اليوم بعض الناس مصابون بالعمى عن هذا الواقع ومستمرّون في عبادة الأشياء المادية كما فعل قوم سبأ. قال تعالى : ﴿وَجَدْتُهُمْ قَوْمًا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤]

انحراف كل الأديان الباطلة: بإنكار الله

من الأديان الملائمة مع العقلية التطورية هي الكونفوشيوسية والطاوية^(١) والبوذية. فهي كالديانات الوثنية الأخرى، والبوذية ترفض مفهوم الخالق، معتقدة أن الكون لم يخلق وأن تطوره أزل^(٢).

كل هذه المعتقدات تتوازي بشكل لافت للنظر مع دين الداروينية: إنكار الخالق، والاعتقاد أن الماء كان مضمون المادة الأولية التي جلبت الكائنات الحية إلى حيز الوجود، والاعتقاد بأن الكائنات الحية تطورت من مادة غير حية وارتقت لتشكل الأنواع الحية الأخرى، والاعتقاد أنهم لم يتشكلوا بتصميم ذكي ولكن عن طريق الصدفة العشوائية.

اليوم، لا يمكن لأي عالم أن يدافع بطريقة موضوعية عن قائمة المعتقدات المذكورة آنفاً لأن العلم قد أثبت أن الكائنات الحية تم إنشاؤها وفقاً لتصميم رائع مع تخطيط وذكاء. وأحد أبرز الأسماء التي تزداد انتشاراً في نظرية «التصميم الذكي» هو عالم الكيمياء الحيوية الأمريكي، «مايكل جي بيهي» (Michael J. Behe)، الذي قال:

«المعضلة هي أنه في حين وُصفت إحدى جانب القضية بالتصميم الذكي، فالجانب الآخر يجب أن يُسمى الله»^(٣).

والحقيقة أن الفكر التطوري لا يمكن أن يقبل أبداً أن الله موجود، وأنه خلق الكون برمته لغاية. وفي عدد من آيات القرآن الكريم، يدعو الله الإنسان للتفكير في الأشياء التي خلقها الله:

قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ تَبَصَّرْهُ وَذَكَرْ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۝ وَنَزَّلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ۝ [ق: ٦]

[١١ -

إن العلماء الذين يصغون لضمايرهم ويفرون من إطار العقل العقائدي الذي ينكر الله؛ وحين النظر فيما حولهم من أدلة الخلق التي لا تعد ولا تحصى سيقبلون بسهولة وجود الخالق. ولكن الداروينيين، الذين لم يتمكنوا من الابتعاد عن هذه الطريقة في التفكير، مضوا في تكريم معتقدات غريبة من الثقافات الوثنية؛ بل وحاولوا تقديمها على أنها أساس للتفكير العلمي والعقلاني.

(١) الطاوية هي عقيدة صينية تعتبر الطاوية ثاني أكبر عقيدة تأثيراً على المجتمع الصيني بعد الكونفوشيوسية ما تزال حية إلى اليوم، ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد، وهي عبارة عن مجموعة مبادئ، قوم في جوهر فكرتها على العودة إلى الحياة الطبيعية والوقوف موقفاً سليماً من الحضارة والمدنية.

(2) The Long War Against God, pp. 220-224.

(3) Darwin's Black Box, pp. 232-233.

مفكري الوثنية اليونانية أول من بذر بذور الداروينية

الأفكار الداروينية قد كتبها سابقاً الفلاسفة اليونانيون الميلسيون الذين ليست لديهم معرفة بقوانين الفيزياء والكيمياء أو الأحياء. كان أحد أهم اثباتات هؤلاء الفلاسفة، الذين من ضمنهم طاليس، واناكسيماندر، وإمبيدوكليس، أن الكائنات الحية (الإنسان والحيوانات والنباتات) ولدت تلقائياً من عناصر غير حية مثل الهواء والنار والماء. وحسب هذه النظرية، جاءت الكائنات الحية الأولى إلى حيز الوجود فجأة وبشكل عفوي في الماء، وبعد برهة من الزمن تركت بعض المخلوقات الماء وتكيفت في العيش على اليابسة.

وكان أول هؤلاء الفلاسفة الميلسين «طاليس» (Thales). الذي عاش في مدينة ساحلية وقضى وقتاً طويلاً في مصر، وهناك تأثر بنهر النيل حيث أدرك أهميته في حياة القانطين هناك. أصبح لديه هاجساً بفكرة أن الكائنات الحية يمكن أن تولد نفسها من الماء، والاستنتاج الذي توصل إليه كان باستخدام الاستدلال والمنطق البسيط دون استخدام التجربة أو الملاحظة العلمية. ثم لاحقاً، أنشأ فلاسفة آخرون من الميلسين نظريات على أساس المنطق نفسه.

بعد طاليس جاء تلميذه «أناكسيماندر» (Anaximander)، وكان المفكر الأكثر أهمية إذ ساهم في سجلات الفكر الغربي بمذهبين ماديين مهمين. الأول هو أن الكون أزلي الوجود وسيظل موجوداً إلى الأبد. والثاني والتي بدأ في التبلور في زمن طاليس هي: أن الكائنات الحية تطورت من بعضها بعض. حتى أن اناكسيماندر كتب قصيدة بعنوان «في الطبيعة»، وهو أول عمل أدبي يحتوي على نظرية التطور. في هذه القصيدة كتب أن المخلوقات برزت من الوحل الذي جففته الشمس. افترض أن الحيوانات الأولية كانت مغطاة بالقشور الشائكة وقد عاشت في البحار. ثم تطورت هذه المخلوقات الشبيهة بالأسماك، وانتقلت إلى اليابسة، وألقت أغطيتها القشرية، ثم أصبحت في نهاية المطاف إنساناً⁽¹⁾. تشرح كتب الفلسفة كيف شكل اناكسيماندر الأساس لنظرية التطور:

«نجد أن اناكسيماندر، من الميلسين (611-546 قبل الميلاد)، قدم الفكرة التطورية التقليدية، وكانت هذه الفكرة أمر شائع جداً في عصره، أن الحياة تطورت لأول مرة من نوع من الحساء قبل الحيوي، وساعدتها أشعة الشمس قليلاً. واعتقد أن أول الحيوانات تطورت من وحل البحر الذي تبخر من أشعة الشمس. واعتقد أيضاً أن البشر انحدروا من الأسماك»⁽²⁾.

ونلقى تفسيراً مشابهاً لاناكسيماندر في كتاب «أصل الأنواع» لتشارلز داروين. فلا يوجد فرق في الأساس بين نظرية التطور المقترحة هناك (مع ادعائها الزائف للعلمية) ورواية الفلاسفة الميلسين الذين عاشوا في ثقافة اغريقية وثنية قديمة.

(1) <http://biology.clc.uc.edu/courses/bio106/earlymod.htm>

(2) www.thedarwinpapers.com/oldsite/Number2/Darwin2Htm1.htm

أهم عنصر في نظرية داروين، مفهوم «الانتقاء الطبيعي»، ومع هذا فهو أيضا من الجذور اليونانية القديمة. فرضية الانتقاء الطبيعي التي بسبب الصراع بين الأنواع من أجل البقاء تعود لأول مرة لعمل الفيلسوف اليوناني «هيراقليطس» (Heraclitus). ووفقا لأطروحة هيراقليطس، هناك صراع دائم بين الكائنات الحية. وهذا هو أصل نظرية داروين في الانتقاء الطبيعي قبل ٢٥٠٠ سنة.

واعتقد «إمبيدوكليس» (Empedocles) (٤٩٥-٤٣٥ قبل الميلاد)، الذي عاش في وقت لاحق من طاليس وأناكسيماندر، أن كل شيء موجود على الأرض جاء إلى حيز الوجود من خلال امتزاجات عشوائية بنسب متفاوتة من الماء والهواء والنار والتراب. ويذكر الكاتب «ديفيد اسكجرلاند» (David Skjaerlund)، الذي بحث في الجذور الفلسفية لنظرية التطور في كتابه «أصول التطور الفلسفية»، أن إمبيدوكليس لديه بعض الأفكار المثيرة للاهتمام. وقال أنه «يعتقد أن الصدفة وحدها كانت مسؤولة عن العملية برمتها، وأن الإنسان تطور من الحياة النباتية السابقة»^(١). يشكل مفهوم الصدفة في الديانات القديمة الاعتقاد الأساسي وهو أيضا أهم معبود في الدين الداروني.

وقد ساهم الفيلسوف اليوناني الآخر «ديموقريطس» (Democritus) في نظرية التطور، وفي تلك الفلسفات المادية التي تتخذ النظرية أساساً لها. وفقا لديموقريطس، لا شيء يوجد بدون المادة، ويتكون الكون من جزيئات صغيرة تسمى الذرات، والذرات أزلية الوجود - غير مخلوقة وغير قابلة للتدمير. ومن هنا، فالمادة كانت دائما موجودة وستبقى في الوجود إلى الأبد. ورفض ديموقريطس أي نوع من الإيمان الروحي وادعى أن القيم الروحية، وحتى الأخلاق، يمكن اختزالها في الذرات. وقد سُمى ديموقريطس أول فيلسوف مادي حقيقي؛ فعنده الكون ليس له غاية، وكل شيء يتحرك وفقا لضرورة عمياء، وجاء كل شيء إلى حيز الوجود بشكل عفوي بذاته. ويُذكر المرء مرة أخرى بالآلهة الباطلة للتطورين المعاصرين - الذرات غير الواعية.

تشكل الذرات غير الواعية الكون - العالم، والهواء الذي نتنفسه، وما نأكله ونشربه، وأجسادنا - باختصار، كل شيء نتصوره، له دور رئيسي في النظرية الداروينية. ومن المعروف أن الكائن الحي، وبما في ذلك الإنسان، يتكون من ذرات الكربون والهيدروجين والأكسجين والكالسيوم والمغنيسيوم والحديد وغيرها من العناصر. وتزعم الداروينية أن هذه الذرات تجمعت مع بعضها بشكل عشوائي عن طريق الصدفة. وبناء على هذا الادعاء السخيف، هذه الذرات المختلفة التي تم تشكيلها في وقت لاحق بدافع غير معروف، جاءت مع بعض لتشكيل النجوم والكواكب وجميع الأجرام السماوية. وبعد فترة من الزمن جاءت الذرات معا مرة أخرى عن طريق الصدفة لتشكيل خلية حية بتركيب معقد للغاية. ثم خضعت هذه الخلية الحية لعملية من التطور لتشكيل الكائنات الحية بأنظمة فائقة الدقة، وأخيرا، تكون الإنسان ذا وعي بدرجة عالية من التطور. بالإضافة، للإنسان الذي هو برمته نتيجة

(1) www.forerunner.com/forerunner/X0742_Philosophical_origin.html

الصدفة، وبلاستعانة بالأدوات المتقدمة التي وضعتها الصدفة (مثل المجهر الإلكتروني)، اكتشفت الذرات التي من خلالها تم تشكيله! وتم تمرير هذا الأمر على أنه فرضية علمية!

وهكذا كأمر واقع، تقبل نظرية التطور بأن كل ذرة هي إله ذو قصد وقوة خلاقية. ولكن الذرات التي شكلت الوعي والذكاء الإنساني هي نفسها دون وعي أو إرادة. ويدعي التطوريون أن هذه الذرات غير الحية جاءت معا وخلقت الإنسان، ثم هذا المزيج من الذرات قرر أن يذهب إلى الجامعة ليحصل على وظيفة. مع إن كل تجربة وملاحظة قد أظهرت أنه بدون تنظيم واعي، فالمادة غير قادرة على تنظيم نفسها أبدا؛ بل إنها تسير نحو الاضطراب والفوضى. لهذا فمن الواضح أنه لا يوجد شيء في الكون نتيجة الصدفة ولكنه جاء إلى حيز الوجود عن طريق كائن واعي له إرادة وعلم وذكاء. وهذه هي صفات الله رب السماوات والأرض.

ومع الفلاسفة المذكورين سابقاً، كان هناك مساهما آخر له أهمية في دين الداروينية وهو الفيلسوف اليوناني «أرسطو» (Aristotle). وحسب أرسطو، فإنه يمكن ترتيب الأنواع في تسلسل هرمي من الأبسط إلى الأكثر تعقيدا وتراصفا في شكل خطي كخطوات في سلم؛ وسمى هذه الفرضية «سلم الطبيعة» Scala Naturae. وأثرت فكرة أرسطو بعمق في الفكر الغربي حتى القرن الثامن عشر، وأصبحت فيما بعد أصل الاعتقاد في السلسلة الكبرى للوجود، والتي بدورها أصبحت نظرية التطور.

اعتقاد آخر من الثقافات الوثنية القديمة: السلسلة الكبرى للوجود

الفكرة الأساسية للدارونية أن كل كائن حي تطور من المادة، كانت قد تلقت هذه الفكرة أيضاً عن طريق مفهوم السلسلة الكبرى للوجود التي قال بها الفيلسوف اليوناني أرسطو. ولا يزال هذا الاعتقاد التطوري يحظى بشعبية لدى أولئك الفلاسفة الذين ينكرون وجود الله.

الفكرة يونانية المنشأ حيث أن كل كائن حي أولي نتج عفويًا من تلقاء نفسه من الماء، ومع مرور الزمن تشكلت عقيدة السلسلة الكبرى للوجود. وفقا لسلم الطبيعة الذي تم قبوله على مدار ٢٠٠٠ سنة، تشكل الكائن الحي بتطوير نفسه من المعادن إلى المواد العضوية من الكائنات الحية للنباتات والحيوانات والإنسان، وأخيرا إلى «الآلهة». وحسب هذا الاعتقاد، تشكلت الأعضاء الجديدة بذاتها مطابقة لاحتياجات الطبيعة. في الأصل، تم اقتراح الفكرة فقط كرؤية فلسفية. وبهذا المنطق الخادع، أصبحت الكائنات الحية الصغيرة كائنات حية أكبر ثم خطوة خطوة. كل كائن حي أصبح له مكانه في السلسلة. وتؤكد أيضا أن الحجر والمعدن والماء والهواء أصبحت كائنات حية، ثم أصبحت الكائنات الحية حيوانات، وأصبحت الحيوانات بشراً دون أي انقطاع في هذه العملية. وسبب قبول هذا الاعتقاد (الذي لا يوجد له أساس علمي، ويتناقض مع كل الحقائق العلمية، وإنما يستند فقط على المنطق المجرد) أنه منذ فترة طويلة لم يعد مسألة علمية بل أيديولوجية. وما يسمح لهذا الاعتقاد الخاطئ أن يبقى هو الاتجاه العقائدي الذي ينكر وجود الله. هذا الاعتقاد يتغير اسمه بشكل دوري، وتم إعداده ليصبح أخيراً يُعرف باسم «نظرية التطور».

ولكن يجب أن يُكرر: الترتيب التسلسلي المزعوم لا يأخذ العلم في الاعتبار. فلا يوجد أي اعتبار للخصائص الفيزيائية للكائنات الحية أو حول كيفية مجيء الحياة إلى حيز الوجود من مواد غير حية، أو كيف المخلوقات التي تعيش في الماء استطاعت أن تتكيف على العيش في اليابسة. وتشكل الأشكال الانتقالية، التي من المفترض أن تمثل روابط التقدم بين الأنواع، واحدة من أخطر المآزق في نظرية التطور لأنها غير موجودة في السجل الأحفوري. كيف تتغير المخلوقات إلى أخرى يبقى هو اللغز الكبير لأن السلسلة هي مجرد نتاج المنطق المجرد السطحي الذي اخترعه الفلاسفة القدماء في غرفة الاجتماعات.

رفض أرسطو وجود الخالق الذي خلق كل شيء من لا شيء، وقدم بدلاً من ذلك رؤيته للآلهة بأنها تطورت من الإنسان. بهذا الاستنتاج الخاطئ أثر أرسطو إلى حد كبير على الفلاسفة الماديين اليونانيين. وتزامن الفترة التي جاء فيها «السلم الطبيعي» في الفكر الغربي مع ظهور النهضة والنزعة الإنسانية. حيث جُلبت في بداية القرن الخامس عشر أعمال اليونانيين واللاتينيين إلى أوروبا ودخلت في الفكر والفلسفة الغربية الحالية. وأهم هذه المفاهيم في هذه النصوص هو مفهوم المادية وإنكار وجود الخالق.

في منهج التفكير الإلحادي، أن البشر لديهم القدرة الكاملة على السيطرة على أنفسهم وعلى العالم الذي يعيشون فيه، مع إنكار أن هناك حياة أخرى بعد الموت. وبالتالي شكلت السلسلة الكبرى للوجود أساس هذا الاعتقاد القائل إن الإنسان قد جاء إلى حيز الوجود عن طريق الصدفة كنتيجة لعملية التطور، ولم تكن في الأساس سوى كتلة من المادة. وليس للقيم الأخلاقية والمشاعر الإنسانية أي أهمية. فينبغي للإنسان ببساطة أن يستمتع بكل يوم ويعيش دون شعور بالمسؤولية تجاه أحد. وقد استعاض عن مفهوم أرسطو للألوهية، الذي هو في الجزء العلوي من السلم الطبيعي، بفكرة الإنسانية بأن الإنسان أعلى مخلوق.

كانت السلسلة الكبرى للوجود ذات شعبية كبيرة في زمن النهضة حتى القرن الثامن عشر، وبُذِل كثير من الجهد للتأثير على العلماء الماديين في تلك الحقبة. وكان العلماء الفرنسيون الذين كان لهم تأثير قوي على تشارلز داروين أمثال «بنوا دي ماليت» (Benoit de Maillet)، و«بيير دي ماويرتيوس» (Pierre de Maupertuis)، و«كونت دي بوفون» (Comte de Buffon)، و«جان باتيست لامارك» (Jean Baptiste Lamarck)، وآخرون كانوا من الذين خصصوا الفكرة اليونانية السلسلة الكبرى للوجود. حيث بنوا أبحاثهم العلمية على هذه الرؤية التطورية. وكانت العقيدة المشتركة لهؤلاء الناس أن الأنواع الحية المختلفة لم تنشأ بشكل فردي بل جاءت إلى حيز الوجود من تلقاء نفسها خلال عملية التطور المعتمدة على الظروف الطبيعية المماثلة لنموذج داروين. لهذا السبب يمكن القول أن الفكر التطوري الحديث ولد في فرنسا.

كان التطوري الفرنسي «الكونت دي بوفون» (Comte de Buffon) واحدا من أكثر العلماء شهرة في القرن الثامن عشر. ولأكثر من خمسين عاما كان مديرا للحدائق النباتية الملكية في باريس. وقد أسس داروين كثيرا من نظريته على أعماله. ويمكن العثور على أكثر العناصر التي كان يستخدمها داروين في المجلد الرابع والأربعين في عمله «التاريخ الطبيعي».

كانت السلسلة الكبرى للوجود هي القاعدة لأنظمة التطورين كل من «دي بوفون» و«لامارك». ومؤرخ العلم الأمريكي «أولدرويد» (Oldroyd) وقد حددا علاقتهما في هذه الكلمات:

«يكشف «بوفون» عن نفسه في كتابه «التاريخ الطبيعي»، بوصفه داعية لمذهب السلسلة الكبرى للوجود، وقد تم وضع الإنسان في الجزء العلوي من السلسلة ... ويمثل اعتقاد لامارك نسخة من المذهب القديم للسلسلة الكبرى للوجود. ومع ذلك ... لم يتصور أنها بنية ثابتة جامدة. فمن خلال الصراع من أجل تلبية متطلبات البيئة، وبلاستعانة بمبدأ وراثية الخصائص المكتسبة، استطاعات الكائنات الحية العمل بافتراض طريقها نحو السلسلة - من الميكروب للإنسان، إذا جاز التعبير ... وعلاوة على ذلك، كانت تظهر مخلوقات جديدة باستمرار في الجزء السفلي من السلسلة، تنشأ

من المواد غير العضوية خلال الجيل العفوي ... وينطوي صعود السلسلة على عملية مستمرة من التعقيد، وذلك بسبب ما يسمى «بقوة الحياة»^(١).

كما يمكن للمرء أن يرى بوضوح، ما يسمى «بنظرية التطور» وهي في الحقيقة انتقالية للعصور الحديثة من أسطورة يونانية قديمة عن السلسلة الكبرى للوجود. فكان هناك تطوريون قبل داروين، وقد وجدت معظم أفكارهم وبراهينهم المعروفة في مفهوم السلسلة الكبرى للوجود. ومع «دي بوفون» و «لامارك» تم عرض السلسلة الكبرى للعالم العلمي في شكل جديد أثرت على داروين.

لقد تأثر داروين بهذه الفكرة لدرجة أنه أسس نظريته بالكامل على أساسها المنطقي. يشير «لورين إيسيل» (Loren Eiseley) في كتاب «قرن داروين»، إلى أن داروين استفاد من مفهوم القرن الثامن عشر لسلم الوجود في كتابه «أصل الأنواع» وأن الفكرة القائلة أن جميع المواد العضوية تميل حتماً إلى التقدم نحو الكمال يجد أصلها هناك^(٢).

لذلك فإن داروين لم يقترح نظرية جديدة. ما عمله لم يكن سوى إعطائها تعبيراً جديداً بلغة علمية معاصرة. واستناداً إلى بعض الملحوظات الخادعة البسيطة، فهو أعاد الدين ببراعة إلى أساطير الوثنيين القدامى السومريين والإغريق. وتعززت في القرنين السابع عشر والثامن عشر مع إضافات جديدة من قبل العديد من العلماء. وفي وقت لاحق، اكتسبت النظرية من خلال كتاب داروين «أصل الأنواع»، غشاء علمياً لتصبح أعظم كذبة في تاريخ العلم.

لا يزال التطوريون المعاصرون يعتقدون بعماء أن الإله الوهمي المسمى «الطبيعة الأم» هي التي خلقتهم، وهذا يظهر التشابه في الجهل للإغريق والسومريين الذين عبدوا آلهة وهمية خلقوها في عقولهم. ولكي نفهم كيف نشأت الأديان الباطلة السخيفة، فإنه من الضروري أن ننظر حولنا في كل شيء، في أصغر التفاصيل يظهر جمال الخلق، والتصميم البديع، والفن الراقي. فالفطرة السليمة تدرك أن هذه الدقة التي لا تشوبها شائبة لا يمكن بحال أن تأتي إلى حيز الوجود عن طريق الصدفة العمياء من خلال آلهة عاجزة أو سلسلة طبيعية تبدأ بالحساء البدائي وصواعق البرق. وقد وصف القرآن هؤلاء الملحدين الذين ألغوا عقولهم بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَهُمُ الْمَلَكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ﴿١٥﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر:

١٤-١٥]

كما هو مبين في هذه الآيات، الذين لازلوا ينكرون وجود الله يعيشون في جهل تام. وسيقبلون كل أنواع الباطل إلا الحق فإنهم سيقفون معاندين ضده. وهم لا يميلون لتصديق الحقائق العلمية

(1) Darwinian Impacts, p. 23 and p. 32.

(2) Darwin's Century, p. 283.

المنطقية ولكن يصدقون الأوهام حيث نفوسهم الدنيئة جعلتهم يرضون بذلك. فكان الإيمان بالتطور منذ العصور القديمة نتيجة لعقلية الإلحاد. وهذه العقلية لا تزال دائماً موجودة، لأنها جزء من قدر الله تعالى. ويؤكد القرآن هذه الحقيقة قال تعالى : ﴿لَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كُفْرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَصْلُ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]

نظرة ثاقبة على دين الداروينية

«عند التفكير في كثير من حالات الناس الذين وصلوا الوهم لسنوات عديدة، غالباً ما تصيبني قشعريرة باردة تسري في جسدي، وأسأل نفسي عما إذا كنت قد كرسيت حياتي للوهم».

(رسالة تشارلز داروين إلى «تشارلز ليبل» (C. Lyell) في ٢٣ نوفمبر ١٨٥٩، واستشهد بها «فرانسيس داروين» (Francis Darwin)، حياة ورسائل تشارلز داروين The Life and Letters of Charles Darwin، المجلد الثاني، نيويورك؛ أبلتون وشركاه، ١٨٨٨، ص ٢٥).

من الضروري لفهم دين الداروينية، أن نتخلى أولاً عن بعض الأفكار السابقة. ما قرأناه حتى الآن لا يظهر حقيقة مزايا وأهداف هذا الدين؛ ولكن فقط بعض الأفكار التي تجمع الناس تحت نفوذها. وقد أظهر الداروينيون النظرية كحقيقة علمية ثابتة كشف عنها تشارلز داروين. مع إن العلم الحديث في الآونة الأخيرة قد أبطل مزاعم الداروينية واحدة تلو الأخرى^(١). ولأنه لم يعد هناك أساس علمي لنظرية التطور، فإنها الآن تتكئ فقط على أساليب الدعاية التي يتم من خلالها فرض الفكر التطوري على الناس في هذا العصر على إنها حقيقة علمية. ولفهم كل جانب من جوانب الداروينية فمن الضروري أولاً التخلص من تأثير الدعاية التطورية وكشف الحقيقة.

(١) لمزيد من التفصيل، انظر لهارون يحيى كتاب "خدعة التطور: انهيار العلمية الداروينية وخلفياتها الأيديولوجية" وكتاب "دحض الداروينية: كيف نظرية التطور انهارت في ضوء المعارف الحديثة".

تشارلز داروين: مؤسس «الدين»

عندما يذكر التطور، فإن أول اسم يتبادر إلى الذهن هو «تشارلز داروين». وبغض النظر أن حقيقة هذا الاعتقاد في تطور الكائنات الحية يكمن في جذور العديد من الديانات الوثنية القديمة، فالشخص الذي جلب هذا المفهوم إلى شكله الحالي هو داروين. وإذا أراد المرء أن يتعرف على دين الداروينية، فمن المهم أن يتغلب على الأسطورة التي نمت حول داروين على مدى المئة والخمسين سنة الماضية. فقد تم تقديم «تشارلز داروين» لسنوات باعتباره رجل العلم البار، والباحث الموضوعي. والحقيقة أنه يُذكر في دوائر أنصار التطورية بأنه «أعظم عالم» و «عبقري القرن» ويرجع ذلك في الأساس إلى الدعاية. ومع ذلك، عندما فُحصت حياة وأفكار داروين، أصبح من الواضح أن الأمر ليس كذلك.

كان داروين، على عكس ما يعتقد الجميع، لم يكن عالماً مهماً، ولا «رب الأنواع» الذي حل أسرار الطبيعة. فقد كان مؤسس هذا الدين شخصاً عادياً تلقى التعليم البروتستانتي وفشل في إكمال دراسته الطبية. كان باحثاً هاوياً عانى من كثير من الأمراض غير المشخصة، وكان قليل الكلام متجنباً المجادلات، فعقله كان مليئاً بالشكوك، وكانت لديه صعوبة في التفكير المنطقي، عاش منزوياً في عالم روحي مضطرب، في ردة فعل عاطفي على وفاة ابنته الصغيرة، فأصبح متمرداً ضد الإله والدين. وفي هذه الحالة الروحية المضطربة اقترح فرضيته والذي سيصبح لاحقاً يُعرف باسم «مؤسس الإلحاد».

وقد بدأ داروين بالتبشير أولاً لأسس نظريته بشكل مفصل لعلماء بارزين في مجاله العلمي من خلال المحادثات والمقالات والرسائل الشخصية. وما تركه داروين ولم يتمه بالقدر الكافي من التفصيل تم إتمامه من قبل أتباعه، الذين واصلوا بعد ذلك في شرح النظرية.

وكتاب داروين «أصل الأنواع»، الذي حظي بمكانة رفيعة كما لو كان كتاباً مقدساً، هو في الواقع مليئ بالمآزق والتناقضات ويستند على منطق متضارب اعتمد على مجرد الاحتمالات والتخمينات. واعتبر داروين نفسه أن كتابه ليس بالقدر كتاباً علمياً ولكنه «جدل طويل». اعترف داروين بنقاط الضعف، والتناقضات، والمآزق، والصعوبات في نظريته وذلك في كتاباته ورسائله إلى أصدقائه. ففي إحدى رسائله اعترف أن هناك عيوباً خطيرة في النظرية التي أدت به إلى حافة الانتحار:

«تسأل عن كتابي، وكل ما يمكنني قوله هو أنني مستعد للانتحار. اعتقدت أنه كان مكتوباً بشكل لائق ولكن وجدت الكثير يريدون إعادة كتابته...»^(١)

وفي رسالة أخرى، قال:

«أرجو أن لا تعتقد أنني أعمى لدرجة أنني لا أرى أن هناك العديد من الصعوبات الهائلة في مفاهيمي»^(١).

(1) The Life and Letters of Charles Darwin, vol. II, p. 501.

وكانت رسائله إلى صديقه، «تشارلز ليل» (Charles Lyell)، تعبر بجلاء عن الشكوك التي يشعر بها حول نظريته:

«عند التفكير في كثير من حالات الناس الذين وصلوا الوهم لسنوات عديدة، غالباً ما تصيبني قشعريرة باردة تسري في جسدي، وأسأل نفسي عما إذا كنت قد كرسيت حياتي للوهم^(٢)».

وعلاوة على أن داروين كان على بينة من الأخطاء والادعاءات التي لا أساس لها في نظريته. فقد كتب:

«إنني لا أشك بأن اعتراضات كثيرة قد خطرت ببال القارئ قبل أن يصل إلى هذا الفصل من كتابي.. إن بعض الاعتراضات خطيرة لدرجة أنني حتى اليوم اضطرب وتعتريني هزة وقشعريرة كلما فكرت فيها^(٣)».

وفي رسالة إلى صديقه المقرب، «آسا غري» (Asa Gray)، عرف نظريته بالتأمل متجاوزاً المنهج العلمي:

«إنني أعي تماماً أن تكهناتي تسير تماماً خارج حدود العلم الحقيقي»^(٤).

وقد أشار أيضاً بعض العلماء في وقت لاحق إلى روح داروين المتناقضة ومنطقه الخاطئ. والحقيقة أن مؤسس النظرية الذي تم تقديمها للعالم كحقيقة مطلقة واقعية؛ لديه عقلية مليئة بالتناقضات والشكوك مما يثير شكوك جدية حول الأساس الذي بنيت عليه النظرية. وكان لدى الفيزيائي الأمريكي «ليبسون» (Lipson) هذا الأمر فيقول عن مخاوف داروين:

«في قراءة كتاب «أصل الأنواع»، وجدت أن داروين كان أقل ثقة بنفسه مما كان يُمثل به الكثير. فالفصل المعنون «صعوبات النظرية» هو على سبيل المثال، يظهر شكاً ذاتياً هائلاً. وكفيزيائي، كنت مفتوناً بشكل خاص بتعليقاته ولا سيما عن كيفية تكون العين^(٥)».

كيف وقع داروين في الحب الوهمي؟ عندما كان طفلاً، نال تعليماً دينياً مطولاً زوّده بالمعرفة عن المعتقدات والمذاهب والتاريخ الديني للحضارات القديمة. ولكن من ناحية أخرى، فقد تأثر بشكل عميق بالفكر الوضعي والفكر المادي في القرن الذي عاش فيه. وبشكل خاص فقد كان لجده، «إيراسموس داروين» (Erasmus Darwin)، التي كانت رؤيته معادية للدين تأثيراً جذرياً عليه.

(1) The Life and Letters of Charles Darwin, vol. I, p. 395.

(2) The Life and Letters of Charles Darwin, vol. II, p. 25.

(3) The Origin of Species, 6th edition, p. 204.

(4) Charles Darwin and the Problem of Creation, p. 2.

(5) H.S. Lipson, "A Physicist's View of Darwin's Theory," Evolution Trends in Plants, vol. 2, no. 1, 1988, p. 6

«معبد الطبيعة» إيراسموس داروين

كان الشاب تشارلز داروين يستمع إلى جده، إيراسموس داروين، منذ طفولته^(١). وفي الحقيقة، كان إيراسموس داروين هو أول من افترض فكرة التطور في انكلترا. كان يُعرف بالفيزيائي، وهو طبيب نفسي وشاعر وكان ذا شخصية مؤثرة مع أنه عاش حياة مظلمة، وكان له على الأقل طفلين غير شرعيين^(٢). وكان إيراسموس داروين واحداً من أشهر علماء الطبيعة في انكلترا. يعتقد بالمذهب الطبيعي وأن جوهر الكون يكمن في الطبيعة التي لديها القدرة الخلاقة. في حين أن جذور هذا المذهب يعود إلى فلسفة المذهب الطبيعي الموجود في الأساطير اليونانية والسومرية القديمة، وكان [هذا المذهب] مؤيداً مهماً للمنظمة الماسونية في القرن التاسع عشر.

وقد أكد «البابا ليو الثالث عشر» (Pope Leo XIII)، زعيم العالم الكاثوليكي هذه الحقيقة في عام ١٨٨٤، في الرسالة البابوية (الجنس البشري)، الذي وجهها بشكل خاص إلى الماسونية:

«في هذه الفترة، الذي يبدو فيه أن أنصار الشر يتحدون مع بعض، ويصارعون بشراسة موحدة، التي يقودها أو يساعدهم تلك الجمعية المنظمة بشكل قوي والمنتشرة على نطاق واسع المسماة بالماسونية. لم يعد هناك أي سر لغاياتها، فهي الآن وبكل جرأة ضد الله نفسه».

واصل البابا في وصف العلاقة بين هذه المنظمة والمذهب الطبيعي:

«ويظهر بوضوح، أن هدفهم المطلق هو الإطاحة التامة لكل نظام ديني وسياسي في العالم الذي أنتجه التعليم المسيحي، واستبداله بالحالة الجديدة المنسجمة مع أفكارهم، التي يجب استخلاص أسسها وقوانينها من المذهب الطبيعي^(٣).

الماسونيون الذين تبنا المذهب الطبيعي كان أعظم ممثل لهم إيراسموس داروين، الذي كان واحداً من أساطين «ماسونية كيركيارد كلوينغ» (Canongate Kilwinning Masonic) في ادنبرة، اسكتلندا^(٤). وبالإضافة إلى ذلك، يبدو أنه قد شارك إلى حد ما مع أندية اليعاقبة في فرنسا، أو مع المتنورين، وكان على علاقة مع بعض المحافل الماسونية في فرنسا والذي كان واجبه الأساسي المعارضة^(٥). علّم إيراسموس ابنه روبرت داروين (والد تشارلز) ليكون مثله، وجعله عضواً في المحافل الماسونية^(١). أذن، فقد ورث تشارلز داروين الماسونية من أبيه وجده^(٢).

(1) The Evidence for Creation: Examining the Origin of Planet Earth, p. 94.

(2) The Long War Against God, p. 178.

(3) Pope Leo XIII, Humanum Genus, Encyclical on Freemasonry, promulgated on April 20, 1884. www.newadvent.org/docs/le13hg.htm

(4) Freemasonry Today, Autumn, 1999, Issue 9, p. 5.

(5) The Long War Against God, p. 198. The "Illuminati" organization established in Bavaria, Germany, in 1776 was a kind of Masonic lodge.

سرد "آدم ايزهاوبت" (Adam Weishaupt) مؤسس المحفل الماسوني (الذي كان من أصل يهودي)، أهداف المنظمة بالتالي: (١) إلغاء جميع الممالك والحكومات النظامية. (٢) إلغاء الميراث الممتلكات الشخصية. (٣) إلغاء الأسرة والزواج، وإقامة نظام تعليمي شعبي للأطفال. و (٤) إلغاء جميع الديانات التوحيدية.

في الواقع أن جد داروين قد حدد الخطوط الرئيسة لنظرية داروين، حيث صمم أعماله الطبيعية كمرشد لداروين. وطور إيراسموس داروين المنطق الأساسي الذي أعطى الدارونية شكلها وشرحها في كتابه المعنون «مبدأ الطبيعة». وقد كان بمثابة تجديد للاعتقاد الوثني القديم التي جعلت للطبيعة قوة إبداعية. وفي عام ١٧٨٤ تأسست جمعية للمساعدة في نشر هذه الأفكار - المجتمع الفلسفي - والتي أصبحت بعد عقود من الزمن واحدة من أكبر وأعظم المتعاطفين المؤيدين لأفكار تشارلز داروين، نظرية التطور الدارونية^(٣) الخاصة، والتي كان اقتراحها بداية في جزر غالاباغوس.

جاء الدين المظلم إلى الحياة في جزر غالاباغوس

تخيل زيارة الأرخييل الأخضر النابض بالحياة في وسط المحيط. في هذه القطعة الصغيرة المنفصلة عن الأرض الرئيسة بالآلاف الكيلومترات حيث يوجد فيها الجمال، والتنوع الغني من النباتات والحيوانات حيث لا توجد في أي مكان آخر في العالم. ولم تواجه الكائنات الحية كثرة في تنوعها العظيم بمثل هذا المكان. فما تعتقد إن وجدت نفسك في مثل هذا المكان مع هذا المنظر الرائع الذي يبدو أمامك؟

مع هذه الألوان الرائعة، والتنوع المدهش، والحيوية الماثلة أمام ناظريك، فإنه بدون شك، سيأتيك شعورا عميقا من المتعة، وستسأل نفسك كيف جاءت كل هذه الأشياء الجميلة إلى الوجود. ونستنتج أن في وسط المحيط على قطعة صغيرة من اليابسة يتم عرض لوحة فنية إبداعية عظيمة، وأن كل شيء هو جزء من خلق غير عادي.

ومع ذلك، عندما رأى داروين هذا التنوع المذهل في الطبيعة، لم يكن ردة فعله مثل معظم الناس. بل بدلا من ذلك ذهب إلى أن كل كائن حي جاء إلى الوجود نتيجة الصدفة. ولم يعتبر أن كل واحد من هذه الكائنات خلقت بقدرة الله الأزلية. فمنطق داروين قاده في اتجاه معاكس.

واجه داروين كثيراً من الكائنات الحية حيث أن معظم الغربيين لم يسبق أن رأوا مثل هذه التي رآها في رحلته التي مكثت مدة خمس سنوات، وخصوصاً على جزر غالاباغوس. فجزر غالاباغوس هي المكان التي توجد فيها أعداد لا تحصى من أنواع الكائنات الحية التي يمكن أن يدرسها العالم. ودفع داروين في سياق رحلته (مع أنه قد جمع آلاف من الكائنات الحية وحفظها في الكحول) معظم

(See Eustace Mullins, The World Order: Our Secret Rulers, p. 5; Lewis Spence, The Encyclopedia of the Occult, p. 223.)

(1) The Long War Against God, p. 198.

(٢) القول أن داروين ماسوني يحتاج إلى دليل، وخصوصاً أنه في كثير من كتاباته لم يذكر أنه ماسوني، وكذلك لم يسجل اسمه في سجلات الماسونية، ولم يذكر أحد أنه رأى داروين في محفل ماسوني، فاتهمه أنه ماسوني يحتاج إلى دليل واضح، وكون أحد أقاربه ماسوني لا يشترط أن يكون هو ماسوني، فالأفكار لا تنتقل بالوراثة.

ولكن الأمر المحتمل، إذا لم يكن ماسونيا فإن الماسونية كان لها تأثير على حياته وذلك بسبب أن أفراد عائلته والأصدقاء والزعماء المحيطين به كانوا ماسونيين. (المترجم)

(3) 10,000 Famous Freemasons, vol. 1, p. 285.

انتباهه إلى أنواع مختلفة من العصافير. وبعد دراسة الاختلافات المادية بين مناقيرها، بدأ في تشكيل نظريته.

ما فعله داروين حقا هو أنه أقام تكهنات مبالغ فيها حول بعض الملحوظات التي كان قد أدلى بها. صحيح أنه كان بين العصافير تباين واسع بقدر ما أتاحت به الجينات؛ ولكن لا يعني هذا أن العصفور تطور من أنواع أخرى من الطيور، أو أنه يمكن أن يتطور إلى أنواع أخرى. وقد اعترف التطوريون المعاصرون أن ادعاءات داروين قد استندت على أساس الاختلاف في مناقير العصافير وهذه من الافتراضات غير العلمية المبالغ فيها^(١).

في الواقع، لا يمكن لعامل قبول الاستدلالات التي أدلى بها عن أصول كل كائن حي فقط على أساس الاختلافات في مناقير العصافير. كيف يمكن لهذا أن يؤدي إلى استنتاجات حول ظهور الحيتان العملاقة والفيلة بخصائصها المتميزة، والذباب بقدراته المذهلة، والتماثل الرائع على أجنحة الفراشة، والتنوع العظيم للأسماك والقشريات والطيور والزواحف، والأهم من ذلك، الإنسان بفكره ووعيه؟

حينما يدرس العالم الحقيقي الكائنات الحية، فإن الاختلاف ليس هو الجانب الوحيد الذي يؤخذ بعين الاعتبار. بل إن الواضح أن المسألة الهامة والأساسية هو التصميم الخارق الموجود في هذه الكائنات. فعند التعامل مع العصافير، فلا بد من النظر في آليات الطيران الدقيقة، والأجنحة المشيدة بشكل رائع ودقيق وتقنية مثالية. وسيكتشف خاصية الحركة الهوائية للريشة الواحدة، وهيكلها وتركيبها المرن الذي يُمكن الطائر من الطيران، وملايين من الالتواءات الصغيرة التي تمسك الريش مع بعض. وسيرى العالم الواعي بعقلية منفتحة ودون أفكار مسبقة الحقيقة واضحة جلية: هذا التصميم الذي لا خلل فيه، والجمال منقطع النظير، والتنوع الذي لا حصر له لا يمكن إلا أن يكون بفعل الخالق.

والسبب في أن داروين وأتباعه وضعوا هذا الواقع بعيدا عن الأنظار هو التعلق النفسي الشديد للفلسفة المادية، والحالة الروحية التي أدركت داروين بشكل واضح. وخير مثال على ذلك هو تعليقه على تركيب العين وريش الطاووس:

(١) من المتفق عليه الآن من قبل علماء الأحياء التطوريين أن الاختلاف المسمى "التطورات الصغيرة" لا يسبب "تطور كبير". أي أنها لم تقدم أي تفسير لأصل الأنواع. ويصف عالم الحفريات ونصير التطور الشهير، "روور لوين" (Rower Lewin)، ما وصل إليه في ندوة لمدة أربع أيام التي عقدت في متحف فيلد للتاريخ الطبيعي في شيكاغو عام ١٩٨٠ هذه الكلمات: "وكان السؤال الرئيسي لمؤتمر شيكاغو إذا كانت الآليات الكامنة وراء التطورات الصغيرة هل يمكن أن يتم استقراءها لشرح ظواهر التطورات الكبيرة ... الجواب يمكن أن يعطي بكل وضوح "لا!"

«أتذكر جيداً حين فكرت في العين أنه أصابني برودة في كل مكان، ولكن تجاوزت هذه المرحلة من الشكوى، وأجد الآن تفاصيل صغيرة تافهة في البناء غالباً ما تجعلني غير مرتاح للغاية. فمن ذلك رؤية الريش في ذيل الطاووس، فكلما أحقق فيه، فإنني أمرض!»^(١)

هذا بالتأكيد يوضح وجهة نظر داروين المتحيزة فيما يتعلق بما واجهه في الطبيعة. بسبب المجموعة الكبيرة والمتنوعة من الكائنات الحية التي لاحظها في جزر غالاباغوس، فقد كان راضياً في تخزينها جانباً في الكحول، ورفض التفكير في الصفات الاستثنائية التي لاحظها فيها. ومع ذلك، لا يحتاج المرء ليذهب إلى جزر غالاباغوس لرؤية أدلة الخلق المميزة في جميع أنحاء الكون. ببساطة بمجرد التحديق في السماء يستطيع أن يرى الأدلة التي لا حصر لها الدالة على وجود الله القادر الحكيم العليم.

العين، التي أصابت داروين، في جميع أجزاء جسده، بالبرودة، هي مجرد مثال من تلك البراهين التي لا تعد ولا تحصى. تمتلك العين تركيباً معقداً بدرجة عالية جداً، وكما لا يستحيل أن يكون نتيجة الصدفة. فهي تتألف من أربعين مكوناً مختلفاً؛ وأحد الجوانب الهامة هو في «التعقيد غير القابل للاختزال». وهذا يعني أن العين، لكي تكون قادرة على تأدية وظيفتها، يجب أن تحتوي كل واحدة على أربعين من هذه المكونات. ولو فقدت العين واحداً من هذه المكونات فلن يكون لها فائدة. وبجانب هذا، كل واحد من هذه المكونات الأربعين لديه تصميمه الداخلي المعقد. على سبيل المثال، تتكون الشبكية في الجزء الخلفي من العين من إحدى عشر طبقة مختلفة، وأحد هذه الطبقات هي شبكة من أوعية دموية. وهذه الطبقة، التي هي أكثر شبكية أوعية دموية في الجسم توفر الأكسجين في خلايا الشبكية اللازمة لتفسير الضوء. وكل طبقة من الطبقات الأخرى لديها عملها الخاص بها. لا يستطيع التطوريون أن يعطوا إجابة مقنعة لمسألة كيف تشكل مثل هذا الجهاز المعقد لأن العين إحدى علامات خلق الله التام. قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي يَخْلُقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤]

أولئك الذين يكرسون أنفسهم بصورة عمياء لاتباع داروين ويصفونه بأنه «رب الأنواع» يجب أن يدرسوا بدقة ما قلناه حتى الآن عن شخصيته. يجب أن يروا أن نظرية داروين تعتمد على الرواية الخيالية عن «معبد الطبيعة» التي تعلمها من جده، واستمد الاستدلالات الخاطئة من هوايته المعرفية في علم الأحياء، والتعصب المفرط في رفض الخلق على أساس التكهّنات حول هذه الاستنتاجات الخاطئة، وثقافة القرن التاسع عشر السطحية التي اعتقدت أن الإلحاد علماً. هذه الصورة التي تم تجميعها من الثقافات الوثنية القديمة، هي جزء من الاعتقاد الخاطئ المعروف باسم «السلم الطبيعي» الذي اقترحه أرسطو منذ قرون.

(1) R. Lewin, "Evolutionary Theory Under Fire," Science, vol. 210, 21 November, 1980, p. 883.

السبب الوحيد الذي يجعل الإنسان يعتنق الدين الباطل بقوة هو أنه ينظر إليه على أنه أداة ضد الدين الحق، وهو الإيمان بالله. ويوضح «فيليب جونسون» (Phillip Johnson) من جامعة شيكاغو، الذي يحتل مكانة رائدة في الأوساط الأكاديمية على الرغم من انتقاده لنظرية التطور:

«وباختصار، انتصار الداروينية تضمن اندثار [الإيمان] بالله، ومهدت الطريق لاستبدال الدين ... بالدين الجديد على أساس المذهب الطبيعي التطوري»^(١)

وفي كتاب آخر يصف جونسون هذا الجانب من الداروينية:

«مع إن التحيز أكبر مشكلة فإن قادة العلم يرون أنفسهم أنهم يخوضون معركة يائسة ضد الأصوليين الدينيين، وهي التسمية التي يميلون إلى تطبيقها على نطاق واسع على أي شخص يؤمن بوجود الخالق الذي يؤدي دورا نشطا في شؤون الحياة. وينظر لهؤلاء الأصوليين باعتبارهم يشكلون تهديدا للحرية الليبرالية، وبشكل خاص تهديدا للدعم العام للبحث العلمي. وكما أن نظرية الخلق تعتبر أسطورة في المذهب الطبيعي العلمي، تقوم الداروينية بدور أيديولوجي لا غنى عنه في الحرب ضد الأصولية. لهذا السبب، تم تكريس المنظمات العلمية لحماية الداروينية بدلا من تمحيصها، وقد شكلت أنظمة البحث العلمي لمساعدتهم على النجاح»^(٢).

كما قال فيليب جونسون، وجدت الفلسفات المادية دعما لوجهات نظرهم الخاصة في نظرية التطور وللأنشطة والدعاية ضد الدين فأوجدوا القوة في الداروينية. أذن، فإن تعزيز الداروينية هو إحدى أهم أهداف القوى المعادية للدين، وأبرز أنصار الداروينية هم أعداء الدين.

(1) Defeating Darwinism by Opening Minds, p. 99.

(2) Darwin on Trial, p. 155.

أصل الأنواع: الكتاب الباطل للدين الباطل

يعتبر الداروينيون كتاب «أصل الأنواع» مبجلاً وموقراً كالكتاب «المقدس». ولكن، كما رأينا سابقاً، أصل الأنواع هو عُقد ضخمة غير متجانسة من الملحوظات والشكوك والتنتاج غير اليقينية الناجمة عن الحالة الروحية السلبية لداروين. والكتاب ليس في الحقيقة عمل علمي ولكنه أسس ببساطة على الاستدلال. حتى تشارلز داروين نفسه لديه تحفظات جدية حول طابعه العلمي. وقد كتب في رسالة إلى صديقه «بلومفيلد» (Blomefield) يقول له:

«تم نشر الكثير منذ ظهور كتاب أصل الأنواع وأنا أشك كثيراً في ما إذا كنت احتفظ بقوة وقدرة عقلية لتقليل صعوبة لشكل مفهوم...»^(١)

وفيما يتعلق بمحتويات الكتاب، أجاب عن ذلك أقرب صديق لداروين حيث قال:

«لقد قرأت كتابك بمزيد من الألم أكثر من المتعة. واعترف أن أجزاء منه عظيمة، وأجزاء اضحكتني حتى آلمني جنبي، وأجزاء أخرى قرأتها بحزن تام لأنني أعتقد أنها كاذبة تماماً ومؤذية بشكل خطير. وتقوم العديد من استنتاجاتك الواسعة على الافتراضات التي لا يمكن إثباتها أو نفيها... تكتب «الانتقاء الطبيعي» كما لو أنها فعلت بدقة من قبل عامل انتقاء»^(٢).

الكتاب قد استند على العديد من الأخطاء في المنطق، والافتراضات غير المنطقية والتأكيدات التي لا يمكن إثباتها، وتبقى إلى اليوم بشكل عام دون تحدي. لأن كتاب «أصل الأنواع» يوفر الركيزة الأساسية للمادية والفلسفة الإلحادية، وينظر إليه على أنه المنقذ من الأيديولوجيات والعقائد الضالة والأديان الباطلة في جميع أنحاء العالم التي تعتمد على الفهم المادي للحياة. وبما أن معظم الناس إلى اليوم لم يقرأوا الكتاب، فإن العديد من المؤسسات التعليمية تعتبره الركيزة الأساسية في الفكر الحديث. يصف «جاك بارزون» (Jack Barzun) أهمية كتاب «أصل الأنواع» بهذه الكلمات:

«اتفق المؤمنون والكافرون بشكل واضح بالانتقاء الطبيعي، وأن الداروينية قد نجحت باعتبارها عقيدة، وباعتبارها نقطة تجمع لأعداد لا حصر لها من الحركات العلمية والفلسفية والاجتماعية. وكان داروين هو المحراب وكتاب «أصل الأنواع» هو النقطة الثابتة مع أي حركة تطور في العالم»^(٣).

بينما استمر داروين وكتابه في تلقي عبارات التملق، يظهر «هنري موريس» (Henry Morris)، في كتابه «الحرب الطويلة ضد الله»، ويبين كيف أن كتاب «أصل الأنواع» بعيد كل البعد عن العلم:

«في الحقيقة، سيجد المرء أنه من العبث أن تبحث في الكتاب كله عن أي أدلة علمية حقيقية للتطور... فلا يقدم الكتاب أي دليل في أي مكان - ولا يستشهد بأمثلة أنواع جديدة معروفة قد تم إنتاجها عن طريق الانتقاء الطبيعي، ولا يعرض الأشكال الانتقالية، ولم يوثق آليات التطور. في الواقع، الأبرز في الكتاب برمته هو افتقاره التام للوثائق. كله تكهنات وافتراضات وادعاءات خاصة. وما فيه من أدلة وحجج أصل المنشأ لا يستطيع أن يصمد أمام التحليل النقدي الحديث، حتى من قبل أنصار التطور. الشيء

(1) The Life and Letters of Charles Darwin, vol. II, p. 388.

(2) The Life and Letters of Charles Darwin, vol. II, pp. 42-43.

(3) Darwin, Marx, Wagner, p. 69.

الوحيد الأعجوبة فقط أن مثل هذا الكتاب يمكن أن يكون عميقا جدا له تأثير على التاريخ اللاحق
لحياة الإنسان وفكره. لا بد أن يكون هناك شيئا أكثر مما تراه العين!^(١)

كما خمن هنري موريس، فهناك العديد من الأسباب المختلفة وراء تأثير كتاب «أصل الأنواع»
على التاريخ البشري. ففي كل تاريخ العلم، لم يؤخذ بالمفهوم العلمي، سواء كان صحيحا أم
خاطئا، ولم يتنبأ بمثل هذا التعاطف والتعصب. ولم تتبع الاكتشافات الرائدة للعلماء في الأوساط
العلمية كنيوتن وآينشتاين كمثال هذا النوع من الحماس. إنه ليس مفهوما علميا فيما يتم التعامل به هنا
ولكنه الدين الذي تم تسويقه عن طريق استهواء السلطة. داروين هو مؤسس هذا الدين، وهو الذي
أصدر الكتاب «المقدس» لدعاة التطور.

(1) The Long War Against God, p. 156.

دين الداروينية دين وثني

يؤمن كثير من الناس بالدين الذي أوحاه الله تعالى، ويؤمن آخرون بالأديان الباطلة التي ابتدعوها أو ابتدعتها مجتمعاتهم. فهم يعبدون الطواطم، ويصلون للشمس، ويرجون الغوث من الأجسام الغريبة. ومثل هؤلاء الناس يعرفون بالوثنيين. وما تم عرضه حتى الآن، يمكن القول أن نظرية التطور هي من بين الديانات الوثنية التي تعبد عدة آلهة.

الإله الرئيسي في الداروينية هو «الصدفة». بغض النظر عما يقرأه الدارويني، فإنه سيجد إشارة إلى قوة هذا الصنم، وقدرته وخبرته وبصيرته لأن الداروينيين يعتقدون أن الكون وكل ما فيه، حي وجماد، جاء إلى حيز الوجود عن طريق الصدفة. الإله المسمى «الصدفة» هو جوهر وشریان الحياة الداروينية. وما يثير الاهتمام هو أن بعض الداروينيين الذين يحملون لقب «عالم» يتكلمون عن نفس موضوع العبادة ومذاهب هذا الدين الوثني. فعلى سبيل المثال، نجد أن عالم الحيوان الفرنسي «بيير جراس» (Pierre Grassé)، وهو من دعاة التطور المتحمسين، يلفت الانتباه إلى هذه الحقيقة:

"تصبح الصدفة نوعاً من الآلهة، والتي لا تُسمى، تحت غطاء الإلحاد، ولكنها تُعبد سرا⁽¹⁾".

وقد برز كذلك نفس الوثن في الديانات الوثنية الأخرى. فوصف أيضاً ظهور الكائنات الحية في الأديان اليونانية والصينية والهندية برجوع حدوثها إلى الصدفة. وقد عبت بلاد ما وراء الأنهار القديمة الأصنام، ورجت الغوث من تلك الأكوام الصخرية، واعتقدت أنهم يمتلكون قوى عظمى. وهذه الأديان تعتقد أيضاً أن الصدفة هي التي جلبت الكائنات الحية إلى حيز الوجود، مثال ذلك، فيضان الأنهار أو بعض حوادث الطبيعة الأخرى. فحسب داروين فإن ظهور أنواع الكائنات الحية الجديدة يعتمد على الظواهر الطبيعية مثل التغيرات المفاجئة في درجة الحرارة أو مستويات عالية من الإشعاع. ومع أن الصدفة الداروينية تختلف عن الآلهة الأخرى. إذ هو الوحيد الذي ينسب إلى الصدفة الوعي والقصد!

اتضح أن "الصدفة" لها غاية؛ وأنه لا مجال هناك للعملية العشوائية. وكان هذا الصنم هو عالم للغيب بحيث، بدأ من أصغر الكائنات الحية، فأحضر كل الكائنات الحية التي على الأرض إلى حيز الوجود وخطط لها احتياجات مستقبلها لملايين السنين القادمة. وهو أيضاً يعلم كل حدث من شأنه أن يحدث في المستقبل بعد ملايين السنين، ويستطيع أن يمتون كل واحد دون أن يفقد جزءاً من التفاصيل.

ولإدارة هذا الأمر، ذهب إله «الصدفة» باستخدام العديد من الأساليب؛ وإحدى أهم تلك الأساليب هو الطفرة. وتعني الطفرة التحولات أو التغيرات في جزيء الحمض النووي (الموجود في نواة الخلية الحية والتي تحمل معلومات وراثية) حيث تأثرت بوسائل الإشعاع أو النشاط الكيميائي.

⁽¹⁾ Evolution of Living Organisms, p. 107.

وعادة ما تتسبب الطفرة تدميراً للخلية لا يمكن إصلاحه. فلو نظرنا للمغوليين والتقزم وفقر الدم المنجلي أو العاهات العقلية والبدنية وكذلك للسرطان فهذه أمثلة لطبيعة الطفرة المدمرة. فالطفرة ليست شيئاً سحرياً حيث يطور الكائنات نحو الكمال. ومن الواضح أن عملها ضار يسبب الوفاة والمرض والوهن. وهذه حقيقة مسلمة من قبل العلماء حيث يقارنون الطفرة بالزلازل⁽¹⁾.

نتائج الطفرة دائماً سلبية. ومع ذلك، تنتج «الصدفة» بشكل منتظم نتائج إيجابية! ويعتقد أن هذا الإله يصنع الجمال والمخلوقات المثالية والنظام الرائع. فيمكن أن يخلق ١٠٠ تريليون خلية في جسم الإنسان من دون خطأ أو نقص. وسواء كان خلق الخلايا شبيهاً بالمصنع، ينتج الطاقة والانزيمات والهرمونات ويخزين المعلومات التي أنتجها في بنك المعلومات في النواة، وتوزيع المواد الخام والمنتجات المنتهية بين الأقسام المختلفة مع نظام المختبر ونظام التنقية الذي يحلل كل شيء يأتي من الخارج، والغشاء الذي يؤمن جودة كل ما يتم تحريره، وهذا الإله لا يقترف الخطأ أبداً وخططه لا تذهب سدى.

والأمثلة على قوة الإله لا نظير لها ولا تعد ولا تحصى. فمثلاً صنعت الصدفة الكائن الحي اعتماداً على القلب والدورة الدموية، ومن أجل أن يؤدي القلب وظيفته، خلقت نظام الشرايين لتحمل الدم إلى كل جزء من أجزاء الجسم. وبينما هي كذلك، لم تنس نظام الأوردة لنقل الدم إلى القلب. وأضافت في غصون ذلك، الكبد (أو الخياشيم) لإزالة غاز ثاني أكسيد الكربون من الدم، وأوصلت النظام برمته مع القلب. فهي قد علمت أنه من أجل تنظيف الدم من الشوائب الأخرى هناك حاجة للكلية لذلك خلقتها على الفور.

وهذه القائمة ممكن أن تمتد، ويجب لكي تستمر حياة أي مخلوق أن تؤدي أعداداً كبيرة من الأعضاء وظيفتها على أكمل وجه، وفي الوقت نفسه. لو أخفق واحداً منها في عمله فإن المخلوق يموت في غضون بضع دقائق، وفي الغالب بعد أيام قليلة. ولكن وفقاً لادعاءات أنصار التطور، فإن الإله، الصدفة، واعى للغاية ومدرك تماماً. خطّط وأحضر إلى الوجود ملايين من الكائنات الكاملة الخالية من العيوب. وهو أيضاً خلق الإنسان نتيجة لعملية طويلة. ولكن لم يرض بالوجود فقط في خلق الإنسان؛ بل أيضاً تصور كل شيء ممكن أن يحتاجه هو وذريته لآلاف الأجيال. ولتوفير احتياجات الأجيال القادمة، خلق قبله القمح بآلاف السنين. وخلق النفط، لتلبية احتياجات الطاقة في الأجيال المقبلة، وحينما جعل الشمس مصدراً للطاقة، فإنه لم يهمل خلق طبقات في الغلاف الجوي لحماية الإنسان من أشعتها الخطيرة. وعندما صمم الجهاز التنفسي للإنسان، خلق أيضاً جواً مناسباً. إنه نظام متوازن للغاية حيث حياة كل كائن حي يعتمد على كائن آخر. فوجود الأكسجين معتمداً على النباتات، والنباتات على الماء، والماء على حرارة الغلاف الجوي؛ وتعتمد جميع هذه الأنظمة على

(1) Origins?, p. 7.

دوران الأرض، والتي بدورها تعتمد على جاذبية الأجرام السماوية والمسافة بين الشمس والقمر وآلاف من التفاصيل الأخرى. ويتغذى كل مخلوق من الآخر، فلو انقرض مخلوق فإن الآخر يتضرر، وبحسب ما يدعي أنصار التطور، فإن الصدفة لديها درجة عالية من الوعي لم تترك أيا من هذه تفاصيل!

بالإضافة إلى ذلك، فمع مرور الوقت خلق هذا الوثن ملايين من أنواع الكائنات الحية وزينها بمميزات خاصة. وفقا لنظرية التطور، هذا الوثن بإمكانه أن يفعل ما يرغبه، فإذا كان يريد أن يعمل العين، فإنه يعملها. وإذا كان يريد أن ينشئ ذراعاً، فإنه ينشأها أيضاً. إنه يتصور كل شيء يريد أن يعمله وكيفية عمله للحصول على نتائج كاملة. قبل وجود العين، حينما لم يكن هناك شيء يبصر خلقت الصدفة فراغين في الجمجمة وادرجت كرتين مليئتين بالسائل الذي يمر من خلالها الضوء، ثم أنشأت لاحقاً عدستين أمام هذا السائل الذي يمكن بسهولة أن يكسر الضوء ويسلطه على الجدار الخلفي للعين، ثم أصبحت العين ترى الفراغ المحيط، حيث خلقت العضلات البصرية. ولكن لم تنتهِ العين بعد، فقد خلقت الشبكية في الجزء الخلفي لتدرك الضوء عن طريق الأعصاب المتصلة بالدماغ، والغدد المسيلة للدموع لحمايتها من الجفاف، وكذلك الجفون والرموش تحميها من الغبار والمواد الغريبة الأخرى. شكّل إله الداروينية كل هذه الكائنات المثالية عن طريق الطفرات - وهي العملية، في ظل الظروف العادية، تنتج مسخاً، وتؤدي إلى العيوب والأمراض، وليس لديها أي تأثير إيجابي على الكائنات الحية.

وفقا للاعتقاد الدارويني، إله الداروينية لديه اهتمام بالجماليات التي يخلقها. وسواء كانت كائنات حية أو جامدة، فإنها تولى اهتماما في لونها ومظهرها وطعمها ورائحتها بحيث ينسجم شكلها جمالياً. عند اتخاذ الفاكهة أو الخضار، فإنها تأخذ في الاعتبار طعمها ورائحتها وشكلها ومحتوياتها من الفيتامينات والمعادن والكربوهيدرات والسكريات والسكر. فليس من المقنع أن تكون الفراولة هكذا مجردة ولكنه يصاحبها أيضاً رائحتها المنعشة وشكلها الجذاب. وبطبيعة الحال، فإن حاسة التذوق والشم لدى الإنسان تجعله يجد متعة مع هذه الجماليات. يقول عالم الحيوان الفرنسي الشهير «بيير بول جراس» (Pierre-Paul Grassé) عن هذا المفهوم:

"يبدو من الصعب تصديق ظهور الطفرات المناسبة التي تسمح للحيوانات والنبات بتلبية احتياجاتها. ومع ذلك، فإن النظرية الداروينية هي أكثر مطالبة: فالنبات لوحده، وكذلك الحيوان منفرداً يتطلب الآلاف والآلاف من الحظ والأحداث المناسبة. وبالتالي، ستصبح المعجزات هي الحكم... لا يوجد قانون مناهض لأحلام اليقظة، ولكن يجب على العلم أن لا يغمس فيها⁽¹⁾."

⁽¹⁾ Evolution of Living Organisms, p. 103.

إن جوهر دين الداروينية هو الاعتقاد الذي يناهض العلم. لو الفكر الإنساني لديه القدرة ليفهم: أن البناء المعقد لا يمكن أن يتشكل بالصدفة، والمنتج يجب أن يكون نتيجة خطة ذكية.

الداروينية هي على طرفي نقيض مع العقل الإنساني. ولكنهم مثل الوثنيين البدائيين المناهضون للعقل الذين عبدوا الأصنام التي صنعوها بأيديهم، والداروينيون كذلك يستخفون بالعقل الإنساني، ويلتزمون بتعاليمهم. يصف عالم الأحياء الجزيئية الشهير «مايكل دنتون» (Michael Denton)، هذا الوضع المثير قالاً:

«للافتراض الشكلي أن البرامج الوراثية للكائنات الحية العليا، تتشكل من شيء قريب من ألف مليون بت من المعلومات، أي ما يعادل سلسلة من الحروف في مكتبة صغيرة لألف مجلد، والتي تحتوي في شكل مشفر على آلاف لا تحصى من خوارزميات معقدة التحكم، ومخصصة، ومنظمة لنمو وتطور المليارات والمليارات من الخلايا في شكل كائن حي معقد، قد تم تأليفها من خلال عملية عشوائية بحتة فهذا مجرد إهانة للعقل. ولكن الداروينيين قبلوا هذه الفكرة دون تموج للشك^(١)»

وللمرء أن يستنتج أن هناك تشابه كبير بين معتقدات الداروينية وتلك الثقافات الوثنية القديمة. فكما يعتقد المشركون أن الأصنام التي لا حياة فيها فإنها قادرة على الخلق، فيعتقد التطوريون والماديون أن المادة غير حية، وبدافع من حوادث عشوائية، خلقت الكائنات الحية، بما في ذلك أنفسهم^(٢).

تأسس الدين الدارويني على الوهم. حتى أن مؤسسه، تشارلز داروين، كان مدركاً أن الكائنات الحية المعقدة لا يمكن أن تأتي إلى حيز الوجود عن طريق الصدفة. فالكمال في نظام الطبيعة أظهر لهم أن كل شيء موجود لديه تصميم رائع. وقد اعترف داروين بشكوكه في هذه الكلمات:

"لا يمكن بأي حال أن افترض بهذه الرؤية أن هذا الكون المذهل، وخاصة فيما يتعلق بالطبيعة البشرية ... وأنا ميال للنظر في كل شيء كنتيجة عن قوانين موضوعة ... وكل هذه القوانين تم تصميمها بشكل صريح من قبل خالق كلي العلم، الذي (تنبأ) عن كل حدث في المستقبل، ولكن أكثر من هذا إذ أعتقد أنني أصبحت أكثر حيرة^(٣)."

(1) Evolution: A Theory in Crisis, p. 351.

(2) الدارونية دين لأنها تعطي صورة كاملة عن العالم بديلاً عن الدين الحق، فتذكر بدء الكون ونهايته، وتذكر الغاية، فهي كالدين تماماً، فهي إيديولوجية وليست فرضية علمية، أصبحت بديلاً عن المسيحية في المعنى والأخلاق. وقد ذكر «مايكل روس» (Michael Ruse) أستاذ الفلسفة بجامعة ولاية فلوريدا أن الداروينية دين يقول: «أنا تطوري متعصب ومسيحي سابق، ولكن يجب أن أعترف في هذه الشكوى أن المتدينين هم على حق تماماً». أن التطور دين. وقد كان هذا حقاً في بداية التطور، ولا زال صحيحاً حتى اليوم» انظر http://www.huffingtonpost.com/michael-ruse/is-darwinism-a-religion_b_٩٠٤٨٢٨.html. يقول داروين: «إن الطبيعة تعطي وتحرم بشكل عشوائي متخبط، إنها تعطي وتجوّد على بعض الأنواع، فتتحسن وتتطور لتعطي أنواعاً جديدة أفضل، بينما تبقى الحيوانات الأخرى التي لم تحظ بعطاء من الطبيعة على حالها وقد تتراجع وتنقرض». فجعل للطبيعة إرادة تعطي وتمنع من تشاء لتكتمل صورة الدين، وتجاهل داروين قدرة الله تعالى وأن الله تعالى هو المعطي والمانع". (المترجم)

(3) The Life and Letters of Charles Darwin, vol. II, p. 105.

« وأنا أدرك أنني في تشويش ميؤوس منه تماماً. لا أستطيع أن أعتقد أن العالم، كما نراه، هو نتيجة الصدفة. والآن لا يمكن أن أنظر في كل شيء منفصل باعتباره نتيجة التصميم»^(١).

«بوسعي أن أعطي أمثلة كثيرة مذهلة وغريبة في كل تصنيفات الحياة، لدرجة أنني أعتقد أنه لا يمكن أن تكون صدفة»^(٢)،^(٣)

(1) The Life and Letters of Charles Darwin, vol. II, p. 146.

(2) The Life and Letters of Charles Darwin, vol. I, p. 455.

(٣) والظاهر أن أفكار داروين وموقفه من الدين قد تبدلت بتقدمه في السن، فقد كان يؤمن في شبابه بفكرة الخلق الخاص، وقد عبر عن اعتقاده بأن «الإنسان سيكون في المستقبل البعيد مخلوقاً أفضل وأكمل بكثير مما هو الآن» وذلك في كتابه المنشور تحت عنوان Life & Letters، والذي يضم طرفاً من حياته وعدداً من رسائله إلى بعض العلماء المعاصرين. يقول داروين في هذا الكتاب: "أن ثمة مصدراً آخر للاعتقاد في وجود الله، يرتبط بالعقل، وله في نظري أهمية أكبر بكثير من المصادر المتعلقة بالمشاعر والأحاسيس. وهذا المصدر يأتي من الصعوبة البالغة - أو بالأحرى استحالة تخيل هذا الكون الفسيح الرائع الذي يشمل الإنسان بقدرته على النظر إلى الماضي البعيد وإلى المستقبل البعيد أيضاً - على أنه ظهر نتيجة للمصادفة البحتة أو نتيجة للضرورة. وحين أفكر بهذه الطريقة أشعر بأنه لا بد لي من البحث عن علة أولى لها عقل بضمير يشبه إلى حد ما عقل الإنسان. وهذا يعطيني الحق في أن أوصف بأنني مؤمن بالله. وقد كانت هذه النتيجة واضحة في ذهني، بقدر ما أتذكر، في الوقت الذي كتبت فيه «أصل الأنواع». ومنذ ذلك الحين أخذت هذه الفكرة تضعف بالتدريج ولكن مع شيء من التقلب والتراوح. ولكن هنا يشور الشك: هل يمكن أن نشق في عقل الإنسان - الذي اعتقد كل الاعتقاد أنه نما وتطور من عقل بسيط كعقول أبسط الحيوانات وأدناها - حين يستنتج مثل هذه الاستنتاجات الضخمة « ويرفع داروين يديه عند هذه النقطة مستسلماً - على ما يقول داونز - ثم يعلن النهاية: «لا أستطيع أن أدعي بأنني ألقى أقل بصيص من الضوء على مثل هذه المشاكل العميقة، فإن سر بداية الأشياء كلها غير قابل للحل. أما فيما يتعلق بي شخصياً فإنني قانع بأن يكون موقعي هو موقف اللاأدري حول هذا الموضوع. انظر عالم الفكر، المجلد الثالث، العدد الرابع ص ٧. (المترجم)

تأثير الدين بسبب الأنشطة التبشيرية

الذين ينشرون أي أيديولوجية أو دين هم في الغالب معتنقي تلك الأفكار. وقد جاء تأثير الداروينية في جميع أنحاء العالم عن طريق أولئك الذين يعتبرون نشر دينهم من خلال النشاط التبشيري واجب عليهم، وهذا المفهوم موجود في العديد من الأديان. المبشرون هم أناس يرحلون من مكان إلى آخر كي يدعوا لدينهم، ويعملون على جمع المؤيدين، ويسعون لإنشاء منظمة في كل مكان. الهدف الأساسي للمبشرين هو تعليم طريقة التفكير الذي يتوافق مع دينهم، وغرضهم قولبة الآخرين ليفكروا كما يفكرون ويشاركونهم القيم والأحكام.

أعظم هدف للمبشرين الداروينيين هو خلق مجتمع يتقاسم نفس الرؤية للحياة كما يراها داروين. في الحقيقة، أن كل مؤسسة في المجتمع، ولا سيما في النظام التعليمي، تؤسس على مبادئهم. فهدفهم هو تثقيف الجيل الذي ينكر وجود الله، ويقبل الرؤية المادية للحياة، ويعبد الأصنام الحالية، ويتمسك بشكل أعمى بهذا الدين الباطل مع إنه غير منطقي وغير عقلائي. ومن هذا المنطلق فإنه من المهم أن الناس الذين يختارونهم أن يكون لديهم الكفاءة التي تشكل جوهر الإرسالية. يجب أن يكون أولئك الذين يقدمون الدعم المادي والروحي للدين قادرون في وقت لاحق على التأثير على الناس وعلى مخاطبة مجموعات كبيرة.

وتأتي الإرساليات الداروينية من أي خلفية مهنية أو تعليمية، فليس شرطاً أن يكون لديهم تدريب علمي أو مستوى تربوي راقى من التعليم. في الواقع، لم يكن تشارلز داروين عالماً حقيقياً. كان شخصاً لديه خلفية في علم اللاهوت ولكنه بعيداً عن الدين. ومن الذين قاموا بدور هام في نشر نظريته، المحامي تشارلز ليل، ومساح الأراضي «وليام سميث» (William Smith)، والخبير الزراعي «جيمس هاتون» (James Hutton)، وعالم الرياضيات «جون بلايفير» (John Playfair)، والصحفي «روبرت تشامبر» (Robert Chambers)، و«ألفريد رسل والاس» (Alfred Russell Wallace) الذي تتلمذ فترة قصيرة في مهنة مسح الأراضي⁽¹⁾.

اعتبر داروين هؤلاء الناس هم جنوده الذين يدخل بهم في أرض المعركة في الميدان الاجتماعي لأنه نفسه لم يكن يرغب أن يشغل هذه الأنشطة. ففكرة التحدث مع الجمهور أو النقاش العام جعلته مريضاً بدنياً. وصف «ريتشارد ميلنر» (Richard Milner) التطوري الشهير الذي قد عمل أبحاثاً كثيرة عن حياة داروين، أولئك الأشخاص بأنهم «مجموعة داروين المتمردون».

ومع مرور الزمن ازداد عدد الإرساليات تدريجياً، وانتشر دين داروين في جميع أنحاء العالم وأصبحت فكرته مثالية، وبدعم من الناس الذين قدموا من كل زوايا المجتمع. ومن أولئك الأوائل الذين يتبادرون إلى الذهن هم «توماس هكسلي» (Thomas Huxley)، والمعروف باسم «كلب داروين»

(1) The Long War Against God, p. 191.

وابنه «جوليان هكسلي» (Julian Huxley)، و«ثيودوسيوس دوبجانسكي» (Theodosius Dobzhansky). وفي العصر الحديث، «ريتشارد دوكينز» (Richard Dawkins) و«ستيفن جاي غولد» (Stephen Jay Gould). وأكثر ما يلفت الانتباه عن هؤلاء الأشخاص، انهم غير عقلانيين (وقد اعترفوا بهذا في اجتماعاتهم)، إنهم يرفضون التخلي عن ولائهم للداروينية. ودائماً يدافعون عن نظرية التطور في كل مجال من مجالات حياتهم، وفي كل كتاباتهم وحواراتهم. وفي مناسبات عديدة تجدهم يتحدثون بصورة علنية عن صحة النظرية، وهم متعصبون بصورة عمياء لهذه النظرية، فقد يلجؤون إلى الغوغائية وتجاوز القضية كي يكسبوا الجدل. وفي كل مواجهة فإنهم يتبنون موقفا عدائياً ضد خصومهم وذلك بالسخرية والشتائم.

وكان أكبر حلفائهم تلك المؤسسات الإعلامية التي أخذت بخط التطور، فهذه المنظمات تجعل من واجبها إيصال الرسالة الداروينية للجميع. وفي الواقع، إنها وسائل الإعلام التي جعلت من الممكن لعقيدة التطور أن تنال مثل هذا التأثير الكبير. وعلماء التطور هم الذين دعموا وسائل الإعلام بتفسيراتهم وبما يسمى المعلومات العلمية، واستغلال الثقة والاحترام التي يقدمها المجتمع للعلماء. في كل قطر هناك تشابه في الأساليب المستخدمة من قبل الإرساليات الداروينية، وهم يستخدمون خدعتين مختلفتين لطمس رؤية الناس: الأولى تفسير مفتوح للداروينية وعرض مبادئها من خلال الكتب ووسائل الإعلام، والمقالات التي تتناول موضوعات الداروينية تظهر باستمرار في المجلات والصحف، ولا تعطي مقالاتهم الدقة العلمية أهمية كبيرة. فالشيء المهم هو ابعاد الناس عن حقيقة الخلق وجعلهم يعتادون فكرة التطور.

الانحراف الداروني في الشعور الأخلاق

الطريقة الثانية المستخدمة هي الإيحاء غير المباشر. يعطي الافتراض الدارويني للناس: «أنت لست مسؤولاً عن أي شخص لأنك تدين حياتك للصدفة، وفي الصراع من أجل البقاء قد تضطر إلى سحق الآخرين؛ وهذا العالم هو عالم صراع ومصالحة ذاتية». إنها الرسالة التي تقدم المفاهيم البيولوجية الدارونية مثل «الانتقاء الطبيعي»، و«الطفرة العشوائية»، و«الصراع من أجل البقاء»، و«البقاء للأصلح»، وغيرها التي قد تحقق لهذه الافتراضات في العديد من المجتمعات قبولاً ونجاحاً. ويعيش معظم الناس حياتهم وفق هذه التصورات. يعيشون في هذا العالم للحصول على وظيفة مرموقة، يكون لهم أملاك، ويكسبون المال، ويعثرون على وسائل الترفيه، ويتفوقون في نضالهم مع الحياة. والناس بهذه العقلية لا تسأل لماذا هي موجودة فضلاً أن تفكر حول وجود الله. هم لا يشعرون بالمسؤولية تجاه الله، الذي خلقهم. ومع أن معظمهم لم يسمع قط عن نظرية التطور أو أفكار داروين، ولكنهم ينظرون للحياة من وجهة نظر داروينية^(١).

أصبح الاقتراح الخفي من الدارونية هو مدونة الأخلاق التي تسيطر على المجتمع بشكل عام. حتى لو كان عدد الإرساليات في المجتمع قليل، فإنهم ياثرون بأفكارهم. فلهم تأثير قوي في الجامعات، وعدد من المؤسسات العلمية، وكل القطاع الاجتماعي. فهم يوجهون المجتمع، ويحددون سياسة التعليم، ويشكلون الضمير العام بمساعدة وسائل الإعلام.

^(١) الدارونية تدعو للصراع، ففانون البقاء للأصلح، يعني أن الإنسان الضعيف أو المريض أو فاقد القوة المادية لا يحق له البقاء، فالبقاء للأصلح أي للأقوى في كل شيء، فنظرية داروين نظرية حيوانية بكل معنى الكلمة، فلا تعتبر للإنسان قيمة البتة، وهذا من أبشع ما ابتلت به البشرية أن تجعل الإنسان في درجة دونية مشابهة للحيوان في أصله ومنشأه، وفي غايته، وفي سلوكه، وهذه جنائية على البشرية أن لا يكون للإنسان قيمة إلا بما لديه من قوة. ولهذا شهد العالم المادي إبادة للبشر لم يسجل التاريخ مثلاً، فعشرات الملايين قتلوا في الحربين العالميتين لأن البقاء يجب أن يكون للأصلح، وأبادت شعوب كالهنود الحمر وغيرهم لأن البقاء للأصلح. النظرة الدارونية عنصرية صرفة فهي قسمت البشرية وفق نمطين: الأصلح، وغير الأصلح. وأباحت للأصلح أن يقضي على غير الأصلح. فالاعتبار ليس للإنسان بذاته ولكن بما لديه من قوة. قال جوليان هكسلي الداروني: «هي حلبة يتم انتقاء الأقوى والأصلح فيها من الأضعف والفاشل، ولا مناص من هذا الانتقاء».

فهم قرروا أن البقاء للأصلح والأقوى، ولكن التاريخ يشهد أن الأقوى قد لا يبقى بل يموت ويفنى، فقوم عاد كانوا أشد قوة، ومع ذلك فنوا جميعاً، ثم هم يقررون أن الأصلح هو الأقوى ويقصدون بذلك في الأمور المادية، وتجاهلوا الأمور المعنوية، فقد يكون الأصلح مادياً فاشلاً معنوياً، فهذا لن تنفعه قوته المادية كثيراً، إذ الضعف سيسري فيه ويهلكه.

وخطأهم أنهم جعلوا الإنسان كالحيوان يعيش في غابة، والحيوان القوي هو الذي يبقى أما الضعيف فيهلك، وهذا قياس لا يصح لأن الإنسان لديه عقل يمنع هذا الافتراض الحيواني بين أفراد، ولديه وعي ومشاعر وأحاسيس ترتقي به عن السلوك الحيواني. النظرية الدارونية بهذا المبدأ تلغي مبدأ الإيثار ومبدأ التضحية والرحمة وجعلت الحياة قاسية لا رأفة فيها، فلا مشهد في الحياة إلا مشهد الصراع، فالدارونية تقر العنف وتجعله ركيزة الحياة. فقد ألغت ضمير الإنسان وجعلته قاسي القلب يتعامل مع الضعيف من منطلق القضاء عليه لأنه يستحق البقاء، وهذه وحشية مقبلة.

ومما ينقض عملية الانتقاء الطبيعي والبقاء للأصلح أن عدد الكائنات الحية أضعاف ما كان في الماضي، ويفترض وفق البقاء للأصلح أن تقرض الكائنات الضعيفة ويبقى الأقوى، ويكون العدد بالتالي أقل، ولكن ما نشهده خلاف هذا. فنحن نرى حيوانات ضعيفة جداً فمثلاً القرد الكسلان، فهو يقضي معظم وقته بدون حركة معلقاً على جذوع الشجرة بواسطة رجليه ويديه، متدلياً بوضع مقلوب رأسه لأسفل. وهو لا يتحرك إلا للضرورة القصوى، وحتى عندما يتحرك تكون حركته بطيئة جداً. ومع ذلك لم ينقرض. فالحيوانات الضعيفة لديها القدرة على البقاء ومواجهة صعوبات الحياة. ثم إذا كان البقاء للأقوى، فلماذا انقرض الديناصور مع قوته، وبقيت البكتريا والحشرات الصغيرة مع ضعفها؟ (المترجم)

ومع أن أذهان الكثيرين منهم غير مبالية بمسألة من أين جاءوا، فإن أكثر صناعات الأفلام، وناشري الصحف والمجلات، والمهيمنين على المسرح، ومراكز الفن، ودور النشر وصناعة الموسيقى، الذين يعتبرون أنفسهم «التنوريون»، هم الذين يؤمنون بالداروينية كدين. وعليه، فإن الشاب الذي يحضر الجامعة، فهو تحت تأثير المعلمين الداروينيين. وعندما يذهب إلى معرض الكتاب، يجد كتب الداروينية والإلحاد. وفي المسرح أو في معرض الصور نفس الرسائل تطبع في الذهن. وهكذا، يأخذ فهم الإلحاد في القطاع التعليمي للمجتمع تحت نفوذهم وينتقل هذا من جيل لآخر.

ويعتقد أولئك الذين وقعوا تحت تأثير هذا الفهم الأخلاقي أن الداروينية حقيقة علمية. فهم يقبلونها بصورة عمياء ويعتبرونها الدين الحق، كعقيدة موروثة يعتنقها مجموعة من الناس غير متعلمين، كما وصفهم الله في القرآن الكريم: **قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذًا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾** [النحل: ٢٤]

ومع أن الدين الحق هو الإسلام، ولا علاقة له بالتقاليد، فهو الحقيقة المطلقة التي أوحاه الله تعالى، وهو الذي خلق وهدى البشرية. إن وعي أولئك الذين انخدعوا بالداروينية متبلد بقدر ما أنهم غير قادرين على فهم هذه الحقيقة. ولكي نفصح هذا الدين الباطل ونرفع ستار الغفلة الذي سقط على المجتمع، فإنه يجب أن نبطل الأساليب العلمية للفلسفة الداروينية والمادية.

محرمات الدين الداروني التي لا يشكك فيها

بغض النظر عن حقيقة أن الدين الداروني هو مجرد نتاج الدهمائيين، فإنه قد استحوز على مكانة مؤثرة في عقول الناس. وهم غير قادرين على مساءلته لأنه يحرم طرح الأسئلة. فهذا الدين يتطلب الإيمان دون قيد أو شرط.

إنه من الضروري لكي تكون دارونياً أن تعتقد أن الكائنات الحية قد نشأت من مادة غير حية، فالزواحف بدأت الطيران نتيجة لعملية من قبيل الصدفة، والكائنات الحية المعقدة للغاية كالخلايا، أصبحت في نهاية المطاف عيناً وأذنًا، وجاءت إلى حيز الوجود عن طريق الصدفة العشوائية، والمخلوقات البحرية مثل الحيتان تطورت من الثدييات كالدببة التي ذهبت إلى البحر بحثاً عن غذائها، والديناصورات التي تجري خلف الذباب تطورت لها أجنحة وأصبحت من الطيور. فمن الواضح أن هذه الافتراضات غير معقولة وغير منطقية. فمن يقرأ هذه الكلمات قد يعتقد أنه عندما العلماء المحترمون يعتقدون هذه الأشياء فإنه حتماً لديهم دليل على ذلك. ولكن ليس هناك أدنى دليل - فقط تخمينات، وظنون، واحتمالات، وأهواء. فالقرار قد تم اتخاذه وصناعته حول هذه الأشياء. لذا من الضروري فقط أن تعتقد.

كل ما هو مطلوب لجعل الناس يؤمنون بهذا الدين هو مقالة واحدة في مجلة أو كتاب أو فيلم وثائقي قصير. حتى ولو أراد أحد التأكد، فإنه لا يستطيع طرح الأسئلة ولا يستطيع دراسة الأحافير التي من المفترض أنها تؤكد الأشكال الانتقالية أو دراسة الرسومات والتوضيحات الملفقة التي يزعم أنها تمثل الحقيقية. ولا يستطيع بنفسه إجراء التجارب، مثل تجربة «ميلر» التي أثبتت التطورات العلمية بطلانها.^(١) وأولئك المتورطون في هذا النوع من الدراسة فإنه مباشرة يتم استبعادهم من الدوائر العلمية من قبل المبشرين الداروينيين. بل في الحقيقة إنهم «يحرمون». لو أنهم فكروا قليلاً حول هذه الحقائق، فحتماً سيدركون الحقيقة.

أي إنسان لديه الحد الأدنى من المعرفة العلمية يعلم أنه ليس هناك وقتاً كافياً لدى الأسماك أن تأتي إلى اليابسة لتنمو معتادة في البيئة الجديدة، فإنها مباشرة ستموت. وأي إنسان درس التركيب المعقد للخلايا سيدرك بمنهج الحس السليم ويفهم أن هذه الكائنات الحية المعقدة لا يمكن بحال أن تأتي من خلال الصدفة. ويدرك أن الزواحف لا يمكن قط أن يتطور لها أجنحة بالصدفة ومن ثم تطير. وسوف تثبت هذه الحقائق لكل نوع بالتجربة والملاحظة. ولكن الناس الذين حجب المذهب الداروني عقولهم لا يريدون التفكير في مثل هذه الأمور، فهم يخافون من التفكير فيها.

(١) لمزيد من التفصيل، انظر لهارون يحيى كتاب "خدعة التطور: انهيار العلمية الداروينية وخلفياتها الأيديولوجية" وكتاب "دحض الداروينية: كيف نظرية التطور انهارت في ضوء المعارف الحديثة".

ولكي نفهم أن الله خلق الكون، فيجب على الإنسان أن يفكر بعمق حول خلق الأرض والسموات. وحين يحرر نفسه من التحيز والتعصب، فإن الاستنتاج الوحيد الذي يمكن أن يصل إليه هو أن هناك خالق عظيم. ويبين الله تعالى في القرآن الكريم أهمية أن يستخدم الإنسان عقله: قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]

يدرك قادة الدارونية أن حرية الفكر تعني نهاية نظريتهم، ولهذا السبب فهم يشبطن الفكر. والطريقة التي يستخدمونها في ذلك أن يقترحوا للناس أن الجوانب العلمية المشهورة لهذا الدين معقدة للغاية ومستعصية جداً على الفهم. فيستخدمون مصطلحات غير مفهومة، وكلمات لاتينية، ومقارنات علمية، ويؤكدون على أن مثل هذه الأمور لا يمكن أبداً أن تفهم من قبل الناس العاديين. وهكذا أقنعوا الناس منذ البداية أنه لا يمكنكم الفهم وأن أصول الدارونية لا يمكن فهمها إلا من قبل الرجال العظماء أهل العلم. ومن أجل أن تتجنب الإحراج، فمن المنطقي، كما يرونه هم، أن تقبل ما يقولونه. لذلك تأسست التراتبية بين قادات الدين والاتباع، بحيث كل شخص يعرف مكانه.

ولكن مع كل الاحتياطات، والمحرمات، والعقبات، فإن الدارونيين لا يستطيعون منع أتباعهم من ممارسة الشك لأن ما يحيط بهم يقدم آلاف البراهين عن الخلق. ولكي تشك في النظريات الدارونية فإنه يكفي أن تتأمل في كمال نظام العالم، وفي الخصائص المدهشة في كل كائن حي، وفي الدقة المذهلة لكل الخلق أجمع من الذرة إلى المجرة، والبناء المعقد لكل كائن حي، وجمال الطبيعة، وعبير الأزهار، وطعم الفواكه.

بعد أن أثبتت التطورات العلمية بطلان نظرية التطور، فإن كثيراً من العلماء اعترفوا بهذا أساليب مختلفة. وقد عمل الدارونيون كل ما في وسعهم، لكنهم لم يتمكنوا من إخفاء الحقائق بغربال. وبقدر ما يحاولون قمع المناقشات والكتب والأبحاث التي تظهر بطلان نظرية داروين بشكل دائم، إلا إنه كان من المستحيل منع تداولها. لذلك رجعت الإرساليات الدارونية إلى واحدة من أهم التدابير الطارئة وهو: التزوير.

التطويرون وجواز التزوير

غالباً ما يقترف التطويرون التزييف والتزوير من أجل تأييد نظريتهم وادعاءاتهم الأساسية، وهذه هي الطريقة العقلانية الوحيدة لإزالة الشكوك لأنهم يدركون أنه بغير هذه النقطة المعينة فإنه لا قيمة للغوغائية وللكتلمات الفارغة. الناس ينتظرون دليلاً موثقاً من دعاة نظرية التطور، ولكن الدليل الوحيد الذي يمكن أن يقدمه الداروينيون هو دليل الزور والكذب. ولا يوجد أي ملجأ آخر لأولئك الذين يروجون العملية الوهمية إلا بإخفاء الاكتشافات الجديدة، وتدمير الأدلة، وذلك من أجل دعم نظرية التطور.

وإحدى أساليبهم هو استخدام الرسومات الخيالية الرائعة لدعم فرضية ما يسمى الإنسان القرد. في الماضي كانوا يرسمون الرسوم التوضيحية الخيالية، والآن، مع مساعدة الكمبيوتر أنتجوا تصاميم جديدة للإنسان القرد. ولكن مصدر الإلهام الوحيد هو الخيال لأنه ليس لديهم دليل علمي. فهم يخترعون «الدليل» ليدعم نظريتهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَمُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا ءَايَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦]

وفي الواقع لقد ارتكب الداروينيون عمليات تزوير كبيرة سجلها التاريخ كفضائح. على سبيل المثال، تحولت جمجمة إنسان بليتداون، الذي تم اكتشافه في عام ١٩١٢ وخدع العالم حتى عام ١٩٥٣، تحولت لتكون أحفورة مزورة صنعت من قبل أنصار التطور من جمجمة بشرية والتي كان الفك السفلي هو لقرد الغاب. وأضيف عليها لاحقاً أسنان الجمجمة ورتبت لتعطي انطباعاً أنها كانت لإنسان؛ وحشوها بشيء ناعم وربطوا عظام الفك، ثم لطخت أجزائها بثاني كرومات البوتاسيوم لإعطاء انطباعاً بتقدم العمر. عرض التطويرون هذه الأحفورة لمدة أربعين عاماً في المتحف البريطاني الشهير. ولأربعين سنة تم خداع العالم العلمي أجمع^(١).

وتزوير آخر مثير للغاية يحمل اسم عالم الأحياء الألماني «إرنست هيجل» (Ernst Haeckel)، وهو معاصر وصديق لداروين. وليؤيد نظريته «التطور الجنيني يلخص التأريخ العرقي»، قال إنه عمل رسومات وهمية تظهر الجنين البشري وكذلك الأسماك كما لو كانا متماثلين. وعمل إضافات لبعض صور الأجنة وأزال أجزاء من بعضها. وبعد أن كُشف، قال مدافعاً عن نفسه: أظهرت أن الآخرين يعملون نفس الأكاذيب:

«بعد هذا الاعتراف «بالتزوير» يجب أن أكون ملزماً لأعتبر نفسي مداناً ومبطلاً، إذ لم يكن لي عزاء إلا أن أرى معي في الأسر جنبا إلى جنب في قصص الاتهام مئات الجناة الاتباع، من بينهم العديد من أشهر المراقبين الثقافات وأعظم علماء الأحياء المحترمين. إن الغالبية العظمى للرسوم البيانية في أفضل الكتب

(1) For more details, see The Evolution Deceit by Harun Yahya.

المدرسية البيولوجية، وكذلك الأبحاث والصحف تأخذ على عاتقها نفس درجة تهمة «التزوير» فكلهم غير دقيقين، والتلاعب والتخطيط قد يزيد وقد ينقص^(١).

فقط عدد قليل من هذه التزويرات تم ذكرها في الصحافة، ولكن تكشف دراسة التاريخ التطوري العديد من الأمثلة على ذلك: رسومات غريبة الأطوار، وإعادة أبنية كاذبة، والتعديلات الأحفورية... وكان الغرض من هذا التزوير إعادة الحيوية للناحية النظرية من خلال إعطائها دعماً بقدر ما يمكن - دعماً لم يكن ليحصل بالأدلة العلمية. وهذه المغالطات هي دليل مهم أن التطور دين عقائدي وأن أتباعه المتعصبين لا يقفون على أي شيء قوي.

(1) The Neck of the Giraffe: Where Darwin Went Wrong, p. 204.

الخلاصة

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَرِّئُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٩]

بعد أن تعلمنا عن الدين الداروينية، ربما قد يسأل الإنسان نفسه: ما الغرض من هذا الدين؟ ما تأمل أن تحققه الداروينية، مع مؤسسها المبعجل، وكتابها «المقدس»، وإرسالياتها ومنظماتها القوية في جميع أنحاء العالم؟

للدين الدارويني هدف واحد فقط: أن يحل محل الأديان السماوية وتدمرها - وخصوصاً الدين المطلق، الإسلام -. وبعبارة أخرى، الداروينية هي ضد الدين ومعارضة للدين الحق، حيث وُضعت الدارونية كبديل عن الدين. وهكذا كان هدف كل ديانة وثنية.

وكما هو موضح سابقاً، فإن قوم سبأ سجدوا للشمس، ولكن القرآن يلفت الانتباه إلى حقيقة مهمة، أن مؤسس دين الوثنية، هو الذي يزينها للناس ويحول بينها وبين الصراط الصحيح، ألا وهو الشيطان.

قال تعالى: ﴿وَجَدْتُهُمْ قَوْمًا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَبِّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤]

إن الأديان الوثنية التي تقف معارضة لوحي الله تعتمد على وحي الشيطان الذي يعمل كل ما في وسعه لمنع الناس من الاستسلام لله تعالى. ولكن الشيطان يعلم أن الشمس ليست إلها تعبد من دون الله تعالى، وأن الله خلق الشمس كما خلق سبحانه الكون كله.

وبالمثل، تم تشكيل الدين الدارويني ليقدم خدمة «للعملية التطورية» أو البحث العلمي. وفي الحقيقة ليس هناك أي «عملية تطورية» تدرس. الغاية الحقيقية من هذا الدين الباطل هو صرف الناس عن الإيمان بالله تعالى.

أهم هدف من الناحية النظرية هو تغذية عقل الإنسان بالخداع بأن الله لم يخلق العالم، وبناء على هذا، فليس هناك أية مسؤولية للالتزام بقانون إلهي. وفي كثير من الأحيان تؤكد نظرية التطور هذا، بالإشارة إلى أن الإنسان هو نفسه «سيد» وهو «الحافظ» ومسؤول «فقط عن نفسه».

والحقيقة المنزلة للبشرية في الإسلام والأديان الأخرى تأسست على الوحي الإلهي وهو أن الله خلق الإنسان لغاية: قال تعالى: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ۚ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدَرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ﴾ [القيامة: ٣٦ - ٤٠]

صور الله الإنسان وجعل الحياة في هذا الدنيا زمن ابتلاء بالنسبة لهم. وفي فترة الابتلاء الإنسان مسؤول عن كل عمل يعمل، وعن كل كلمة يقولها أو يكتبها، في الواقع، أن كل فكر أضمره في ذهنه. فالإنسان مسؤول عنه أمام ربه.

لذا، أولئك الذين وقعوا تحت تأثير هذا الدين التطوري، حتى لو كانوا من مؤيديها فإنهم عطشى، يجب أن يهربوا منه بأسرع ما يمكن. فمن الضروري أن يعترفوا بمسؤوليتهم النبيلة، ويحنوا رؤوسهم لله ربنا تعالى، ويخضعون له. وإلا فإنهم سيقون دوغماتين مغلقي الذهن، يعيشون حياة زائفة كاذبة كاتباع للدين الباطل: قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦]

وسيوافهون يوم الحساب الذي لا يتوقعونه، ويواجهون الحساب الذي طالما أنكروه، ويتحملون عاقبة أعمالهم.